تفسير سورة الجاثية

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾.

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء. وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: جنوباً وشآما، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولاً: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو ترَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهي قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا عن وهب بن مُنَبِّه أثراً طويلاً غريباً في خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

يقول تعالى: هذه آيات الله ـ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ـ ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ أي: أفاك في قوله كذاب، حلاّف مهين أثيم في فعله وقيله كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزواً، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو. ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ يعني القرآن، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾: وهو المؤلم الموجع.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في

ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]. وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خَلَف العسقلاني، حدثنا الفِرْيَاني، عن سفيان، عن الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال: وائت ابن عباس فاسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون نعم الله. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم، ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُؤمَّل بن إهاب، حدثنا بُكَير بن عثمان التَّنوخي، حدثنا الوَضِين بن عطاء، عن يزيد بن مَرْثَد الباجي، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي الله وهو من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله، ونهي الله لله، لا يؤتمن عليهن إلا الله. قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يجتني من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار». هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكره محمد بن إسحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجراً بمكة في أسِّ الكعبة مكتوب عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتني من الشوك العنب. وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي

الضحى، عن مسروق؛ أن تميما الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين. وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئاً إلا عبده. وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين: أحدها: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي: يتوهمون ويتخيلون. فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر». وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً فقال: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا، يميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾» قال: «ويسبون الدهر، فقال الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيْح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار». وأخرجه صاحبا الصحيح والنسائي، من حديث يونس بن زيد، به. وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسَبَّنِي عبدي، يقول: وادهراه. وأنا الدهر». قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله ﷻ، فكأنهم إنما سبوا، الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤] وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد،

ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝﴾ [المعارج: ٦، ٧] أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ۝ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما، في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات. وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة، فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله، ﷺ. ذكره ابن أبي حاتم.

ثم قال: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا يكون إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي، نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك اليوم مريم التي ولدتني. وقال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصري: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على الركب. وقال عِكْرِمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: متميزة على ناحيتها، وليس على الركب. والأول أولى. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرىء، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم». وقال إسماعيل بن رافع المديني، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، مرفوعاً في حديث الصورة: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهي التي يقول الله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾.

وهذا فيه جمع بين القولين: ولا منافاة، والله أعلم. وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ۝﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥]. ثم قال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾.

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات، وهي الخالصة الموافقة للشرع، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء». ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الواضح. ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: لا نعرفها، ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً، أي مرجوحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك

الخيل والإبل، وأذرك تراس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى، يا رب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني». قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب. ثم لما ذكر حكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة الجاثية ولله الحمد والمنة





(٤٥) سورة الجاثية مكية وآياتها سبع وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل النهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن قوله (حم، تنزيل الكتاب) وجوهاً (الأول) أن يكون (حم) مبتدأ (وتنزيل الكتاب) خبره وعلى هذا التقدير فلا بد من حذف مضاف، والتقدير تنزيل حم، تنزيل الكتاب، و (من الله) صلة للتنزيل (الثانى) أن يكون قوله (حم) فى تقدير : هذه (حم) ثم نقول (تنزيل الكتاب) واقع من الله العزيز الحكيم (الثالث) أن يكون (حم) قسما (وتنزيل الكتاب) نعتاً له، وجواب القسم (إن فى السموات) والتقدير : وحم الذى هو تنزيل الكتاب أن الأمر كذا وكذا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (العزيز الحكيم) يجوز جعلهما صفة للكتاب، ويجوز جعلهما صفة لله تعالى، إلا أن هذا الثانى أولى، ويدل عليه وجوه (الأول) أنا إذا جعلناهما صفة لله تعالى

كان ذلك حقيقة ، وإذا جعلناهما صفة للكتاب كان ذلك مجازاً والحقيقة أولى من المجاز (الثانى) أن زيادة القرب توجب الرجحان (الثالث) أنا إذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك إشارة إلى الدليل الدال على أن القرآن حق ، لأن كونه عزيزاً يدل على كونه قادراً على كل الممكنات وكونه (حكيما) يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنياً عن كل الحاجات ، ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى (عزيزاً حكيما) كونه قادراً على جميع الممكنات ، عالما بجميع المعلومات ، غنياً عن كل الحاجات ، وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل ، وإذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلا على الصدق ، فثبت أنا إذا جعلنا كونه (عزيزاً حكيما) صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة ، وأما إذا جعلناهما صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة ، فكان الأول أولى والله أعلم .

ثم قال تعالى (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) وفيه مباحث :

(البحث الأول) أن قوله (إن فى السموات والأرض لآيات) يجوز إجراؤه على ظاهره ، لأنه حصل فى ذوات السموات والأرض أحوال دالة على وجود الله تعالى مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها ، وأيضاً الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة فى السموات والأرض وهى آيات ، ويجوز أن يكون المعنى (إن فى خلق السموات والأرض) كما صرح به فى سورة البقرة فى قوله (إن فى خلق السموات والأرض) وهو يدل على وجود القادر المختار فى تفسير قوله (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض)

(البحث الثانى) قد ذكرنا الوجوه الكثيرة فى دلالة السموات والأرض على وجود الإله القادر المختار فى تفسير قوله (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) ولا بأس بإعادة بعضها فنقول إنها تدل على وجود الإله من وجوه : (الأول) أنها أجسام لاتخلو عن الحوادث ، ومالايخلو عن الحوادث فهو حادث فهذه الأجسام حادثة وكل حادث فله محدث (الثانى) أنها مركبة من من الأجزاء وتلك الأجزاء متماثلة ، لما بينا أن الأجسام متماثلة ، وتلك الأجزاء وقع بعضها فى العمق دون السطح وبعضها فى السطح دون العمق فيكون وقوع كل جزء فى الموضع الذى وقع فيه من الجائزات ، وكل جائز فلابد له من مرجح ومخصص (الثالث) أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها فى تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية ، فيكون ذلك أمراً جائزاً ولا بد لها من مرجح (الرابع) أن أجرام الكواكب مختلفة فى الألوان مثل كمودة زحل ، وبياض المشترى ، وحمرة المريخ ، والضوء الباهر للشمس ، ودرية الزهرة ، وصفرة عطارد ، ومحو القمر ، وأيضاً فبعضها سعيدة ، وبعضها نحسة ، وبعضها نهارى ذكر ، وبعضها ليلى أنثى ، وقد بينا أن الأجسام فى ذواتها متماثلة ، فوجب أن يكون اختلاف الصفات لأجل أن الإله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة (الخامس) أن كل فلك فإنه مختص بالحركة إلى جهة معينة ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء ، وكل ذلك أيضاً من

الجائزات ، فلا بد من الفاعل المختار (السادس) أن كل فلك مختص بشيء معين وكل ذلك أيضاً من الجائزات ، فلابد من الفاعل المختار ، وتمام الوجوه مذكور فى تفسير تلك الآيات .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (لآيات للمؤمنين) يقتضى كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين ، وقالت المعتزلة إنها آيات للمؤمن والكافر ، إلا أنه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات إلى المؤمنين ، ونظيره قوله تعالى (هدى للمتقين) فانه هدى لكل الناس كما قال تعالى (هدى للناس) إلا أنه لما انتفع بها المؤمن خاصة لاجرم قيل (هدى للمتقين) فكذا ههنا ، وقال الأصحاب الدليل والآية هو الذى يترتب على معرفته حصول العلم ، وذلك العلم إنما يحصل بخلق الله تعالى لا بإيجاب ذلك الدليل ، والله تعالى إنما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر فكان ذلك آية دليلا فى حق المؤمن لا فى حق الكافر والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (وما يبث) عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف إليه ، لأن المضاف ضمير متصل مجرور والعطف عليه مستقبح ، فلا يقال مررت بك وزيد ، ولهذا طعنوا فى قراءة حمزة (تساءلون به والأرحام) بالجر فى قوله (والأرحام) وكذلك إن الذين استقبحوا هذا العطف ، فلا يقولون مررت بك أنت وزيد .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ حمزة والكسائى (آيات) بكسر التاء وكذلك الذى بعده (وتصريف الرياح آيات) والباقون بالرفع فيهما ، أما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وأبو على : (أحدهما) العطف على موضع إن وما عملت فيه ، لأن موضعهما رفع بالابتداء فيحمل الرفع فيه على الموضع ، كما تقول إن زيداً منطلق وعمر ، و (أن الله برىء من المشركين ورسوله) لأن معنى قوله (أن الله برىء) أن يقول الله برىء من المشركين ورسوله ، (والوجه الثانى) أن يكون قوله (وفى خلقكم) مستأنفاً ، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى كما تقول إن زيداً منطلق وعمرو كاتب ، جعلت قولك وعمرو كاتب كلاماً آخر ، كما تقول زيد فى الدار وأخرج غداً إلى بلد كذ ، فإنما حدثت بحديثين ووصلت أحدهما بالآخر بالواو ، وهذا الوجه هو اختيار أبى الحسن والفراء ، وأما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله (إن فى السموات) على معنى (وإن فى خلقكم لآيات) ويقولون هذه القراءة إنها فى قراءة أبى وعبد الله (لآيات) ودخول اللام يدل على أن الكلام محمول على إن .

﴿البحث الثالث﴾ قوله (وفى خلقكم) معناه خلق الإنسان ، وقوله (وما يبث من دابة) إشارة إلى خلق سائر الحيوانات ، ووجه دلالتها على وجود الإله القادر المختار أن الأجسام متساوية فاختصاص كل واحد من الأعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين ، لابد وأن يكون

بتخصيص القادر المختار ، ويدخل فى هذا الباب انتقاله من سن إلى سن آخر ومن حال إلى حال آخر ، والاستقصاء فى هذا الباب قد تقدم .

ثم قال تعالى (واختلاف الليل والنهار) وهذا الاختلاف يقع على وجوه : (أحدها) تبدل النهار بالليل وبالضد منه (وثانيها) أنه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس وبمقدار ما يزداد فى النهار الصيفى يزداد فى الليل الشتوى (وثالثها) اختلاف مطالع الشمس فى أيام السنة .

ثم قال تعالى (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه (أحدها) إنشاء السحاب وإنزال المطر منه (وثانيها) تولد النبات من تلك الحبة الواقعة فى الأرض (وثالثها) تولد الأنواع المختلفة وهى ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها وثمارها ثم تلك الثمرة منها ما يكون القشر محيطاً باللب كالجوز واللوز ، ومنها ما يكون اللب محيطاً بالقشر كالمشمش والخوخ ، ومنها ما يكون خالياً عن القشر كالتين ، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها وتباين أقسامها يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم .

ثم قال (وتصريف الرياح) وهى تنقسم إلى أقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة فمنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية ، ومنها الحارة والباردة ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة ، ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال إنها (آيات لقوم يعقلون) .

واعلم أن الله تعالى جمع هذه الدلائل فى سورة البقرة فقال (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) فذكر الله تعالى هذه الأقسام الثمانية من الدلائل والتفاوت بين الموضعين من وجوه (الأول) أنه تعالى قال فى سورة البقرة (إن فى خلق السموات والأرض) وقال ههنا (إن فى السموات) والصحيح عند أصحابنا أن الخلق عين المخلوق ، وقد ذكر لفظ الخلق فى سورة البقرة ولم يذكره فى هذه السورة تنبيها على أنه لا يتفاوت بين أن يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات فيكون هذا دليلا على أن الخلق عين المخلوق (الثانى) أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكر ههنا ستة أنواع وأهمل منها الفلك والسحاب ، والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذى هو كالسبب يغنى عن ذكرهما (والتفاوت الثالث) أنه جمع الكل وذكر لها مقطعاً واحداً وههنا رتبها على ثلاثة مقاطع والغرض التنبيه على أنه لابد من إفراد كل واحد منها بنظر تام شاف (الرابع) أنه تعالى ذكر فى هذا الموضع ثلاثة مقاطع (أولها) يؤمنون (وثانيها) يوقنون (وثالثها) يعقلون ، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى

تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل ، واعلم أن كثيراً من الفقهاء يقولون إنه ليس فى القرآن العلوم التى يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه ، وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس فى القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصاً المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة وكل ذلك من علوم الأصوليين ، ومن تأمل علم أنه ليس فى يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال .

ثم قال تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) والمراد من قوله (بالحق) هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية وذلك لأن العلم بأنها حقة صحيحة إما أن يكون مستفاداً من النقل أو العقل والأول باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم بإثبات الإله العالم القادر الحكيم وبإثبات النبوة وكيفيه دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل ، وإذا كان كذلك كان قوله (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) من أعظم الدلائل على الترغيب فى علم الأصول وتقرير المباحث العقلية .

ثم قال تعالى (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) يعنى أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شىء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف وبين أنه يجب على المكلف التأمل فى دلائل دين الله ، وقوله (يؤمنون) قرىء بالياء والتاء ، واختار أبو عبيدة الياء لأن قبله غيبة وهو قوله (لقوم يؤمنون ، ولقوم يعقلون) فإن قيل إن فى أول الكلام خطاباً وهو قوله (وفى خلقكم) قلنا الغيبة التى ذكرنا أقرب إلى الحرف المختلف فيه والأقرب أولى ، ووجه قول من قرأ على الخطاب أن قل فيه مقدر أى قل لهم فبأى حديث بعد ذلك تؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ، من ورائهم جهنم

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

ولا يغنى عنهم ما كسبوا عنهم شيئاً ولا مااتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ، هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار وبين أنهم بأى حديث بعده يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها ، أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال (ويل لكل أفاك أثيم) الأفاك الكذب والأثيم المبالغ فى اقتراف الآثام ، واعلم أن هذا الأثيم له مقامان :

﴿ المقام الأول ﴾ أن يبقى مصراً على الإنكار والاستكبار ، فقال تعالى (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر) أى يقيم على كفره إقامة بقوة وشدة (مستكبراً) عن الإيمان بالآيات معجباً بما عنده ، قيل نزلت فى النضر بن الحرث وماكان يشترى من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة فى كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ، فإن قالوا ما معنى ثم فى قوله (ثم يصر مستكبراً) ؟ ، قلنا نظيره قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) إلى قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ومعناه أنه تعالى لما كان خالقاً للسموات والأرض كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساوية له فى المعبودية ، كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض .

قوله تعالى : ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ الأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن ومحل الجملة النصب على الحال أى يصير مثل غير السامع .

﴿ المقام الثانى ﴾ أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء فقال (وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً) وكان من حق الكلام أن يقال اتخذه هزواً أى اتخذ ذلك الشىء هزواً إلا أنه تعالى قال (اتخذها) للاشعار بأن هذا الرجل إذا أحس بشىء من الكلام أنه من جملة الآيات التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد .

قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أولئك إشارة إلى (كل أفاك أثيم) لشموله جميع الأفاكين ، ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال (من ورائهم جهنم) أى من قدامهم جهنم ، قال صاحب الكشاف الوراء اسم للجهة التى توارى بها الشخص من خلف أو قدام ، ثم بين أن ما ملكوه فى الدنيا لا ينفعهم فقال (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً) .

ثم بين أن أصنامهم لا تنفعهم فقال (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) .

ثم قال (ولهم عذاب عظيم) فان قالوا إنه قال قبل هذه الآية (لهم عذاب مهين) فما الفائدة فى قوله بعده (ولهم عذاب عظيم) قلنا كون العذاب مهيناً يدل على حصول الإهانة مع العذاب

ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

وكونه عظيما يدل على كونه بالغاً إلى أقصى الغايات فى كونه ضرراً .

ثم قال (هذا هدى) أى كامل فى كونه هدى (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) والرجز أشد العذاب بدلالة قوله تعالى (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء) وقوله (لئن كشفت عنا الرجز) وقرىء أليم بالجر والرفع ، أما الجر فتقديره لهم عذاب من عذاب أليم وإذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليماً ، ومن رفع كان المعنى لهم عذاب أليم ويكون المراد من الرجز الرجس الذى هو النجاسة ومعنى النجاسة فيه قوله (ويسقى من ماء صديد) وكأن المعنى لهم عذاب من تجرع رجس أو شرب رجس فتكون من تبييناً للعذاب .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر وذلك لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء (أحدها) الرياح التى تجرى على وفق المراد (ثانيها) خلق وجه الماء على الملاسة التى تجرى عليها الفلك (ثالثها) خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه ، وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر ، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى ، وقوله (ولتبتغوا من فضله) معناه إما بسبب التجارة ، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، أو لأجل استخراج اللحم الطرى .

ثم قال تعالى (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه) والمعنى لولا أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والأرض فى مقارها وأحيازها لما حصل الانتفاع ، لأن بتقدير كون

الأرض هابطة أو صاعدة لم يحصل الانتفاع بها ، وبتقدير كون الأرض من الذهب والفضة أو الحديد لم يحصل الانتفاع ، وكل ذلك قد بيناه ، فان قيل ما معنى منه فى قوله (جميعاً منه) ؟ قلنا معناه أنها واقعة موقع الحال ، والمعنى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعنى أنه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه ، قال صاحب الكشاف قرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازى أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ذلك منه أو هو منه .

واعلم أنه تعالى لما علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله (قل الذين آمنوا يغفروا الذين لا يرجون أيام الله) والمراد بالذين لا يرجون أيام الله الكفار ، واختلفوا فى سبب نزول الآية قال ابن عباس (قل للذين آمنوا) يعنى عمر (يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) يعنى عبد الله بن أبى ، وذلك أنهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ما حبسك ؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك ، فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال مقاتل شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة فهم أن يبطش به فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية .

وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودى لما أنزل قوله (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) قال احتاج رب محمد ، فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبه حتى رده ، وقوله (للذين لا يرجون أيام الله) قال ابن عباس لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية ، وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله (وذكرهم بأيام الله) وأكثر المفسرين يقولون إنه منسوخ ، وإنما قالوا ذلك لأنه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ، فلما أمر الله بهذه المقاتلة كان نسخاً ، والأقرب أن يقال إنه محمول على ترك المنازعة فى المحقرات وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والأفعال الموحشة .

ثم قال تعالى (ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون) أى لكى يجازى بالمغفرة قوما يعملون الخير ، فإن قيل : ما الفائدة فى التنكير فى قوله (ليجزى قوماً) مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون فى قوله (قل للذين آمنوا) ؟ ، قلنا التنكير يدل على تعظيم شأنهم كأنه قيل : ليجزى قوماً وأى قوم من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه ، وقال آخرون معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار ، ليجزى الله الكفار بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قيل لهم لا تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن ، ثم ذكر الحكم العام فقال (من عمل صالحاً

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

فلنفسه) وهو مثل ضربه الله الذين يغفرون (ومن أساء فعليها) مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على إيذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل ، فبين تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله ، والعمل الردىء يعود بالضرر على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا ونهى عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع إليه ، وهذا ترغيب منه فى العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى بين أنه أنعم بنعم كثيرة على بنى إسرائيل ، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغى والحسد : والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم .

واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا ، فلهذا

بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين ، فقال (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايراً لصاحبه ، أما (الكتاب) فهو التوراة ، وأما (الحكم) ففيه وجوه ، يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة ، ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات ، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه ، وأما النبوة فمعلومة ، وأما نعم الدنيا فهى المراد من قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) وذلك لأنه تعالى وسع عليهم فى الدنيا ، فأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى ، ولما بين تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيباً وافراً ، قال (وفضلناهم على العالمين) يعنى أنهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم فى وقتهم ، فلهذا المعنى قال المفسرون المراد : وفضلناهم عن عالمى زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ وفيه وجوه (الأول) أنه آتاهم بينات من الأمر ، أى أدلة على أمور الدنيا (الثانى) قال ابن عباس : يعنى بين لهم من أمر النبى ﷺ أنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب (الثالث) المراد (وآتيناهم بينات) أى معجزات قاهرة على صحة نبوتهم ، والمراد معجزات موسى عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ وهذا مفسر فى سورة (حم ، عسق) والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وههنا صار مجيء العلم سبباً لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ، ثم ههنا احتمالات يريد أنهم علموا ثم عاندوا ، ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التى توصل إلى العلم ، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التى لو تأملوا فيها لعرفوا الحق ، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ والمراد أنه لا ينبغى أن يغتر المبطل بنعم الدنيا ، فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها ، فإنه سيرى فى الآخرة ما يسوؤه ، وذلك كالزجر لهم ، ولما بين تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغى والحسد ، أمر رسوله ﷺ بأن يعدل عن تلك الطريقة ، وأن يتمسك بالحق ، وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق وتقرير الصدق ، فقال تعالى (ثم جعلناك على شريعة من الأمر) أى على طريقة ومنهاج من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات ، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الأهواء والجهل ، قال الكلبى : إن رؤساء قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة : ارجع إلى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ أى لو ملت إلى أديانهم الباطلة فصرت مستحقاً للعذاب ، فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك ، ثم بين تعالى أن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً

فى الدنيا وفى الآخرة ، لاولى لهم ينفعهم فى إيصال الثواب وإزالة العقاب ، وأما المتقون المهتدون ، فالله وليهم وناصرهم وهم مواليه ، وما أبين الفرق بين الولايتين ، ولما بين الله تعالى هذه البيانات الباقية النافعة ، قال (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) وقد فسرناه فى آخر سورة الأعراف ، والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل مافيه من البيانات الشافية ، والبينات الكافية بمنزلة البصائر فى القلوب ، كما جعل فى سائر الآيات روحاً وحياة ، وهو هدى من الضلالة ، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن ، ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذى تقدم ، بين الفرق بينهما من وجه آخر ، فقال (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ (أم) كلمة وضعت للاستفهام عن شىء حال كونه معطوفاً على شىء آخر ، سواء كان ذلك المعطوف مذكوراً أو مضمراً ، والتقدير ههنا : أفيعلم المشركون هذا ، أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين ؟ .

﴿ البحث الثانى ﴾ الاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وفلان جارحة أهله ، أى كاسبهم ، قال تعالى (ويعلم ماجرحتم بالنهار) .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى على وحمزة وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم ، وفى ثلاثة من المشركين : عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شىء ، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم فى الآخرة ، كما أنا أفضل حالا منكم فى الدنيا ، فأنكر الله عليهم هذا الكلام ، وبين أنه لايمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساوياً لحال الكافر العاصى فى درجات الثواب ، ومنازل السعادات .

واعلم أن لفظ (حسب) يستدعى مفعولين (أحدهما) الضمير المذكور فى قوله (أن نجعلهم) (والثانى) الكاف فى قوله (كالذين آمنوا) والمعنى أحسب هؤلاء المجترحين أن نجعلهم أمثال الذين آمنوا ؟ ونظيره قوله تعالى (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) وقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين ، معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقوله تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) وقوله (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) .

ثم قال تعالى (سواء محياهم ومماتهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (سواء) بالنصب ، والباقون بالرفع ، واختيار أبى عبيد النصب ، أما وجه القراءة بالرفع ، فهو أن قوله (محياهم ومماتهم) مبتدأ والجملة فى حكم المفرد فى محل النصب على البدل من المفعول الثانى لقوله (أم نجعل) وهو الكاف فى قوله (كالذين آمنوا) ونظيره قوله : ظننت زيداً أبوه منطلق ، وأما وجه القراءة بالنصب

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

فقال صاحب الكشاف : أجرى سواء مجرى مستوياً ، فارتفع (محياهم ومماتهم) على الفاعلية وكان مفرداً غير جملة ، ومن قرأ (ومماتهم) بالنصب جعل (محياهم ومماتهم) ظرفين كمقدم الحاج ، وخفوق النجم ، أى (سواء) فى (محياهم) وفى (مماتهم) ، قال أبو على من نصب سواء جعل المحيا والممات بدلا من الضمير المنصوب فى نجعلهم فيصير التقدير أن نجعل (محياهم ومماتهم) سواء ، قال ويجوز أن نجعله حالا ويكون المفعول الثانى هو الكاف فى قوله (كالذين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد بقوله (محياهم ومماتهم) قال مجاهد عن ابن عباس يعنى أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم ، كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين ، وذلك لأن المؤمن ما دام يكون فى الدنيا فإنه يكون وليه هو الله وأنصاره المؤمنون وحجة الله معه ، والكافر بالضد منه ، كما ذكره فى قوله (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) وعند القرب إلى الموت ، فإن حال المؤمن ماذكره فى قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة) وحال الكافر ما ذكره فى قوله (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) وأما فى القيامة فقال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة) فهـذا هو الإشارة إلى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين (والوجه الثانى) فى تأويل الآية أن يكون المعنى إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة ، وذلك لأن المؤمن والكافر قد يستوى محياهم فى الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر أرجح حالا من المؤمن ، وإنما يظهر الفرق بينهما فى الممات (والوجه الثالث) فى التأويل أن قوله (سواء محياهم ومماتهم) مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سوء فكذلك محيا المحسنين ومماتهم ، أى كل يموت على حسب ماعاش عليه ، ثم إنه تعالى صرح بإنكار تلك التسوية فقال (ساء ما يحكمون) وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ، أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ، وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قدر بأن المؤمن لايساوى الكافر فى درجات السعادات ، أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى ، فقال (وخلق الله السموات والأرض بالحق) ولولم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل ، لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ، ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالماً ، ولو كان ظالماً لبطل أنه (خلق السموات والأرض بالحق) وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور فى أول سورة يونس ، قال القاضى هذه الآية تدل على أن فى مقدور الله ما لو حصل لكان ظلماً ، وذلك لايصح إلا على مذهب المجبرة الذين يقولون لو فعل كل شىء أراده لم يكن ظلماً ، وعلى قول من يقول إنه لايوصف بالقدرة على الظلم ، وأجاب الأصحاب عنه بأن المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظلماً كما أن المراد من الابتلاء والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلاء واختباراً ، وقوله تعالى (ولتجزى) فيه وجهان : (الأول) أنه معطوف على قوله (بالحق) فيكون التقدير وخلق الله السموات والأرض لأجل إظهار الحق ولتجزى كل نفس ، (الثانى) أن يكون العطف على محذوف ، والتقدير (وخلق الله السموات والأرض بالحق) ليدل بهما على قدرته (ولتجزى كل نفس) والمعنى أن المقصود من خلق هذا العلم إظهار العدل والرحمة ، وذلك لايتم إلا إذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت فى الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين ، ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم ، فقال (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) يعنى تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه ، وقرىء (آلهته هواه) كلما مال طبعه إلى شىء اتبعه وذهب خلفه ، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها .

ثم قال تعالى (وأضله الله على علم) يعنى على علم بأن جوهر روحه لايقبل الصلاح ، ونظيره فى جانب التعظيم قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وتحقيق الكلام فيه أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة فمنها مشرقة نورانية علوية إلهية ، ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل إلى الشهوات الجسمانية ، فهو تعالى يقابل كلا منهم بحسب مايليق بجوهره وماهيته ، وهو المراد من قوله (وأضله الله على علم) فى حق المردودين وبقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فى حق المقبولين .

ثم قال (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) فقوله (وأضله الله على علم) هو المذكور فى قوله (إن الذين كفروا) إلى قوله (لا يؤمنون) وقوله (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) هو المراد من قوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وكل ذلك قد مر تفسيره فى سورة البقرة بالاستقصاء ، والتفاوت بين الآيتين أنه فى هذه الآية قدم ذكر السمع على القلب ، وفى سورة البقرة قدم القلب على السمع ، والفرق أن الإنسان قد يسمع كلاماً فيقع فى قلبه منه أثر ، مثل أن جماعة من الكفار كانوا يلقون إلى الناس أن النبى ﷺ شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة ، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه ، وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون إليه ، ولو سمعوا كلامه مافهموا منه شيئاً نافعاً ، ففى الصورة الأولى كان الأثر يصعد من البدن إلى جوهر النفس ، وفى الصورة الثانية كان الأثر ينزل من جوهر النفس إلى قرار البدن ، فلما اختلف القسمان لاجرم أرشد الله تعالى إلى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال (فمن يهديه من بعد الله) أى من بعد أن أضله الله (أفلا تذكرون) أيها الناس ، قال الواحدى وليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة ، لأن الله تعالى صرح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره ، وأقول هذه المناظرة قد سبقت بالاستقصاء فى أول سورة البقرة .

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم فى إنكار القيامة وفى إنكار الإله القادر ، أما شبهتهم فى إنكار القيامة فهى قوله تعالى (وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) فإن قالوا الحياة مقدمة على الموت فى الدنيا فمنكروا القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت ، فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) المراد بقوله (نموت) حال كونهم نطفاً فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، وبقوله (نحيا) ماحصل بعد ذلك فى الدنيا (الثانى) نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا (الثالث) يموت بعض ويحيا بعض (الرابع) وهو الذى خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال (ما هى إلا حياتنا الدنيا) ثم قال بعده (نموت ونحيا) يعنى أن تلك الحياة منها مايطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا ، ومنها مالم يطرأ الموت عليها ، وذلك فى حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد ، وأما شبهتهم فى إنكار الإله الفاعل المختار ، فهو قولهم (وما يهلكنا إلا الدهر) يعنى تولد

الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع ، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة ، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت ، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك ، ولا حاجة فى هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار ، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة .

ثم قال تعالى (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمة ، فالذى قالوه يحتمل وضده أيضاً يحتمل ، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقاً ، وأن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقاً ، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية فى أن هذا الاحتمال الثانى باطل ، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة ، فثبت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين فى صحة القول الذى اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى .

ثم قال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سمى قولهم حجة لوجوه (الأول) أنه فى زعمهم حجة (الثانى) أن يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم البتة حجة كقوله : تحية بينهم ضرب وجيع [أى ليس بينهم تحية لمنافاة الضرب للتحية] (الثالث) أنهم ذكروها فى معرض الاحتجاج بها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن حجتهم على إنكار البعث أن قالوا لو صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث .

واعلم أن هذه الشبهة ضعيفة جداً ، لأنه ليس كل ما لا يحصل فى الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول ، فان حصول كل واحد منا كان معدوماً من الأزل إلى الوقت الذى حصلنا فيه ، ولو كان عدم الحصول فى وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك ، وذلك باطل بالاتفاق .

قوله تعالى :﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ﴾ فإن قيل هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول (ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) فهذا القائل كان منكراً لوجود الإله ولوجود يوم القيامة ، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله (قل الله يحييكم ثم يميتكم) وهل هذا إلا إثبات للشىء بنفسه وهو باطل ، قلنا إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم فى القرآن مراراً وأطواراً ، فقوله ههنا (قل الله يحييكم) إشارة إلى تلك الدلائل التى بينها وأوضحها مراراً ، وليس المقصود من ذكر هذا الكلام

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

إثبات الإله بقول الإله ، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع فى نفس الأمر .

ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة ممكنة فى نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة .

وأما قوله تعالى (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) فهو إشارة إلى ما تقدم ذكره فى الآية المتقدمة ، وهو أن كونه تعالى ، عادلا خالقاً بالحق منزهاً عن الجور والظلم ، يقتضى صحة البعث والقيامة .

ثم قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لكن أكثر الناس لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم ، ولا يعلمون أيضاً أنه تعالى لما كان قادراً على الإيجاد ابتداء وجب أن يكون قادراً على الإعادة ثانياً .

قوله تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين ، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادراً على الإحياء فى المرة الأولى ، وعلى كونه قادراً على الإحياء فى المرة الثانية فى الآيات المتقدمة ، عمم الدليل فقال (ولله ملك السموات والأرض) أى

لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات أو من الأرض ، وإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحياة فى هذه الذات ممكن ، إذ لو لم يكن ممكناً لما حصل فى المرة الأولى فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادراً على الإحياء فى المرة الثانية .

ولما بين تعالى إمكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين ، ذكر تفاصيل أحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ عامل النصب فى يوم تقوم يخسر ، ويومئذ بدل من يوم تقوم

﴿البحث الثانى﴾ قد ذكرنا فى مواضع من هذا الكتاب أن الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال ، والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجرى مجرى تصرف التاجر فى رأس المال لطلب الربح ، والكفار قد أتعبوا أنفسهم فى هذه التصرفات وماوجدوا منها إلا الحرمان والخذلان فكان ذلك فى الحقيقة نهاية الخسران (وثانيها) قوله تعالى (وترى كل أمة جاثية) قال الليث الجثوا الجلوس على الركب كما يجثى بين يدى الحاكم ، قال الزجاج ومثله جذا يجذو ، قال صاحب الكشاف : وقرىء جاذية ، قال أهل اللغة والجذو أشد استيفازاً من الجثو ، لأن الجاذى هو الذى يجلس على أطراف أصابعه ، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها .

ثم قال تعالى (كل أمة تدعى إلى كتابها) على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة ، وقوله (إلى كتبها) أى إلى صحائف أعمالها ، فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) والظاهر أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك (فأما الذين آمنوا) .

ثم قال تعالى (وأما الذين كفروا) فإن قيل الجثو على الركبة إنما يليق بالخائف والمؤمنون لاخوف عليهم يوم القيامة ، قلنا إن المحق الآمن قد يشارك المبطل فى مثل هذه الحالة إلى أن يظهر كونه محقاً .

ثم قال تعالى (اليوم تجزون) والتقدير يقال لهم اليوم تجزون ، فإن قيل كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله تعالى ؟ قلنا لامنافاة بين الأمرين لأنه كتابهم بمعنى أنه الكتاب المشتمل على أعمالهم وكتاب الله بمعنى أنه هو الذى أمر الملائكة بكتبه (ينطق عليكم) أى يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ولا نقصان (إنا كنا نستنسخ) الملائكة (ما كنتم تعملون) أى نستكتبهم أعمالكم .

ثم بين أحوال المطيعين فقال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات ، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايراً للايمان زائداً عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة علق الدخول فى رحمة الله على كونه آتياً بالإيمان والأعمال

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ

الصالحة ، والمعلق على مجموع أمرين يكون عدماً عند عدم أحدهما ، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة (وجوابنا) أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سمى الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الإسم إذا لم تكن واجبة ، فوجب أن لا يكون الثواب واجباً على الله تعالى .

ثم قال تعالى (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسماً ثالثاً وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة إثبات المنزلتين باطل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها ، وهذا يدل على استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع ، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع ، خلافاً لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ جواب (أما) محذوف والتقدير (وأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم) عن قبول الحق (وكنتم قوماً مجرمين) فإن قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرماً فى معرض الطعن فيه والذم له ؟ قلنا معناه أنهم مع كونهم كفاراً ما كانوا عدولا فى أديان أنفسهم ، بل كانوا فساقاً فى ذلك الدين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ، وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ، ذلكم بأنكم اتخذتم آيات

ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبوا ، فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء والساعة رفعاً ونصباً قال الزجاج من نصب عطف على الوعد ومن رفع فعلى معنى وقيل (الساعة لا ريب فيها) قال الأخفش الرفع أجود فى المعنى وأكثر فى كلام العرب ، إذا جاء بعد خبر إن لأنه كلام مستقل بنفسه بعد مجيء الكلام الأول بتمامه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حكى الله تعالى عن الكفار أنهم إذا قيل إن وعد الله بالثواب والعقاب حق وإن الساعة آتية لاريب فيها قالوا (ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) .

أقول الأغلب على الظن أن القوم كانوا فى هذه المسألة على قولين منهم من كان قاطعاً بنفى البعث والقيامة ، وهم الذين ذكرهم الله فى الآية المتقدمة بقوله (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا) ومنهم من كان شاكاً متحيراً فيه ، لأنهم لكثرة ماسمعوه من الرسول ﷺ ، ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية ، والذى يدل عليه أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين ، ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول .

ثم قال تعالى (وبدا لهم) أى فى الآخرة (سيئات ما عملوا) وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا (إن نظن إلا ظناً) إنما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الأول ، لأن الأولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين ، وهذا الفريق ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء .

ثم قال تعالى (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) وفى تفسير هذا النسيان وجهان (الأول) نترككم فى العذاب كما تركتم الطاعة التى هى الزاد ليوم المعاد (الثانى) نجعلكم بمنزلة الشيء المنسى غير المبالى به ، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا إليه بل جعلتموه كالشيء الذى يطرح نسياً منسياً ، فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء (فأولها) قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية (وثانيها) أنه يصير مأواهم النار (وثالثها) أن لا يحصل لهم أعوان من الأعوان

والأنصار ، ثم بين تعالى أنه يقال لهم إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد ، لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة (فأولها) الإصرار على إنكار الدين الحق (وثانيها) الاستهزاء به والسخرية منه ، وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً) و (ثالثها) الاستغراق في حب الدنيا والإعراض بالكلية عن الآخرة ، وهو المراد من قوله تعالى (وغرتكم الحياة الدنيا) .

ثم قال تعالى (فاليوم لايخرجون منها) قرأ حمزة والكسائي (يخرجون) بفتح الياء ، والباقون بضمها (ولا هم يستعتبون) أي ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم ، أي يرضوه ، ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى ، فقال (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرض ، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات ، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين .

ثم قال تعالى (وله الكبرياء في السموات والأرض) وهذا مشعر بأمرين (أحدهما) أن التكبير لابد وأن يكون بعد التحميد ، والإشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لائقاً بإنعامه ، بل هو أكبر من حمد الحامدين ، وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين (والثاني) أن هذا الكبرياء له لا لغيره ، لأن واجب الوجود لذاته ليس إلا هو .

ثم قال تعالى (وهو العزيز الحكيم) يعني أنه لكمال قدرته يقدر على خلق أي شيء أراد ، ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم ، وقوله (وهو العزيز الحكيم) يفيد الحصر ، فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو ، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو ، ولا محسن ولا متفضل إلا هو .

قال مولانا رضي الله عنه : تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة الخامس عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله حمداً دائماً طيباً مباركا مخلداً مؤبداً ، كما يليق بعلو شأنه وباهر برهانه وعظيم إحسانه ، والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدسة من ساكني أعالي السموات ، وتخوم الأرضين ، من الملائكة والأنبياء والأولياء والموحدين ، خصوصاً على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

تم الجزء السابع والعشرون ، ويليه الجزء الثامن والعشرون وأوله سورة الأحقاف

٤٥ – سورة الجاثية

(مكية وهى سبع وثلاثون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ ٤٥ الجاثية

تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ٤٥ الجاثية

إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ٤٥ الجاثية

وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ٤٥ الجاثية

فانتظر مايحل بهم (إنهم مرتقبون) مايحل بك . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأحم الدخان * ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له .

﴿سورة الجاثية مكية وهى سبع وثلاثون آية﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) الكلام فيه كما مر فى فاتحة سورة المؤمن فإن جعل اسماً للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا مسمى بحم والإشارة إلى السورة قبل جريان ذكرها قد وقفت على سره مراراً وإن جعل مسروداً على نمط التعديد فلاحظ له من الإعراب وقوله تعالى

٢ (تنزيل الكتاب) على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ مضمر يلوح به ماقبله أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل هو خبر لحم أى المسمى به تنزيل الخ وقد مر مراراً أن الذى يجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لاعهد بالتسمية بعد فحقها الإخبار بها وأما جعله خبراً له بتقدير المضاف وإبقاء التنزيل على أصله أى تنزيل حم تنزيل الكتاب فمع عرائه عن إفادة فائدة يعتد بها تمحل وقوله تعالى (من الله العزيز الحكيم) كما مر فى صدر سورة الزمر على التفصيل وقيل حم مقسم به وتنزيل الكتاب *

٣ صفته وجواب القسم قوله تعالى (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) وهو على الوجوه المتقدمة كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية ومحل الآيات إما نفس السموات والأرض فإنهما منطويتان من فنون الآيات على مايقصر عنه البيان وإما خلقهما كما فى قوله تعالى إن فى

٤ خلق السموات والأرض وهو الأوفق بقوله تعالى (وفى خلقكم) أى من نطفة ثم من علقة متقلبة فى أطوار مختلفة إلى تمام الخلق (وما يبث من دابة) عطف على المضاف دون المضاف إليه أى وفيما * نشره وبفرقه من دابة (آيات) بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجمل معطوفة على ماقبلها * من الجملة المصدرة بأن وقيل آيات عطف على ما قبلها من آيات باعتبار المحل عند من يجوزه وقرىء

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ٤٥ الجاثية

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ٤٥ الجاثية

يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ٤٥ الجاثية

آية بالتوحيد وقرىء آيات بالنصب عطفاً على ماقبلها من اسم إن والخبر كأنه قيل وإن فى خلقكم
٥ وما يبث من دابة آيات (لقوم يوقنون) أى من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ماهى عليه (واختلاف
الليل والنهار) بالجر على إضمار الجار المذكور فى الآيتين قبله وقد قرىء بذكره والمراد باختلافهما
* إما تعاقبهما أو تفاوتهما طولا وقصراً (وما أنزل الله من السماء) عطف على اختلاف (من رزق)
* أى من مطر وهو سبب للرزق عبر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتى القدرة والرحمة (فأحيا به
* الأرض) بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنبات (بعد موتها) وعرائها عن آثار الحياة
* وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو أشجارها عن الثمار (وتصريف الرياح) من جهة إلى أخرى ومن
حال إلى حال وقرىء بتوحيد الريح وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه فى الوجود إما للإيذان
بأنه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر
آية واحدة وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التى
* من جملتها سوق السفن فى البحار (آيات لقوم يعقلون) بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار
والمجرور والجملة معطوفة على ماقبلها وقرىء بالنصب على الاختصاص وقيل على أنها اسم إن والمجرور
المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولى عاملين مختلفين هما إن وفى أقيمت الواو مقامهما فعملت
الجر فى اختلاف والنصب فى آيات وتنكير آيات فى المواقع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا واختلاف
٦ الفواصل لاختلاف مراتب الآيات فى الدقة والجلاء (تلك آيات الله) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (نتلوها
* عليك) حال عاملها معنى الإشارة وقيل هو الخبر وآيات الله بدل أو عطف بيان (بالحق) حال من
* فاعل نتلو ومن مفعوله أى نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق (فبأى حديث) من الأحاديث (بعد الله
وآياته) أى بعد آيات الله وتقديم الاسم الجليل لتعظيمها كما فى قولهم أعجبنى زيد وكرمه أو بعد حديث
الله الذى هو القرآن حسبما نطق به قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث وهو المراد بآياته أيضاً ومناط
٧ العطف التغاير العنوانى (يؤمنون) بصيغة الغيبة وقرىء بالتاء (ويل لكل أفاك) كذاب (أثيم)
٨ كثير الآثام (يسمع آيات الله) صفة أخرى لأفاك وقيل استئناف وقيل حال من الضمير فى أثيم (تتلى
عليه) حال من آيات الله ولا مساغ لجعله مفعولا ثانياً ليسمع لأن شرطه أن يكون مابعده مما لا يسمع

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ٤٥ الجاثية

مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ٤٥ الجاثية

هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ٤٥ الجاثية

كقولك سمعت زيداً يقرأ (ثم يصر) أى يقيم على كفره وأصله من إصرار الحمار على العانة (مستكبراً) عن الإيمان بما سمعه من آيات الله تعالى والإذعان لما تنطق مزدرياً لها معجباً بما عنده من الأباطيل وقيل نزلت فى النضر بن الحرث وكان يشترى من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن لكنها وردت بعبارة عامة ناعية عليه وعلى كل من يسير سيرته ماهم فيه من الشر والفساد وكلمة ثم لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التى حقها أن تذعن لها القلوب وتخضع لها الرقاب كما فى قول من قال [يرى غمرات الموت ثم يزورها] (كأن لم يسمعها) أى كأنه لم يسمعها فخفف وحذف ضمير الشأن والجملة حال من يصر أى يصر شبيهاً بغير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره واستكباره (وإذا علم من آياتنا شيئاً) أى إذا بلغه من آياتنا شىء وعلم أنه من آياتنا لا أنه علمه كما هو عليه فإنه بمعزل من ذلك العلم وقيل إذا علم منها شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا فاسداً يتوصل به إلى الطعن والغميزة (اتخذها) أى الآيات كلها (هزواً) أى مهزوءاً بها لا ما سمعه فقط وقيل الضمير للشىء والتأنيث لأنه فى معنى الآيات (أولئك) إشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح والجمع باعتبار الشمول للكل كما فى قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد (لهم) بسبب جناياتهم المذكورة (عذاب مهين) وصف العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى (من ورائهم جهنم) أى من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم أو من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام (ولا يغنى عنهم) ولا يدفع (ما كسبوا) من الأموال والأولاد (شيئاً) من عذاب الله تعالى أو شيئاً من الإغناء (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى الأصنام وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم وفيه تهكم (ولهم) فيما وراءهم من جهنم (عذاب عظيم) لا يقادر قدره (هذا) أى القرآن (هدى) فى غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها (والذين كفروا) أى بالقرآن وإنما وضع موضع ضميره قوله تعالى (بآيات ربهم) لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم (لهم عذاب من رجز) أى من أشد العذاب (أليم) بالرفع صفة عذاب وقرىء بالجر على أنه صفة رجز وتنوين عذاب فى المواقع الثلاثة للتفخيم ورفعه إما على الابتداء وإما على الفاعلية .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ٤٥ الجاثية

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ٤٥ الجاثية

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ٤٥ الجاثية

---

١٢ (الله الذى سخر لكم البحر) بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه (لتجرى الفلك فيه بأمره) وأنتم راكبوها (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص

١٣ والصيد وغيرها (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض) من الموجودات بأن جعلها مدار المنافع لكم (جميعاً) إما حال من مافى السموات والأرض أو توكيد له (منه) متعلق بمحذوف هو صفة لجميعاً أو حال من ما أى جميعاً كائناً منه تعالى أو سخر لكم هذه الأشياء كائنة منه مخلوقة له تعالى أو خبر لمحذوف أى هى جميعاً منه تعالى وقرىء منة على المفعول له ومنه على أنه فاعل سخر على الإسناد المجازى أو خبر مبتدأ محذوف أى ذلك منه (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من الأمور العظائم (لآيات) عظيمة الشأن كثيرة العدد (لقوم يتفكرون)

١٤ فى بدائع صنع الله تعالى فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ويوفقون لشكرها (قل للذين آمنوا) حذف المقول لدلالة (يغفروا) عليه فإنه جواب للأمر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أى قل لهم اغفروا يغفروا (للذين لا يرجون أيام الله) أى يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعها وقيل لا يأملون الأوقات التى وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه حين شتمه غفارى فهم أن يبطش به وقيل حين قال ابن أبى ماقال وذلك أنهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فأرسل ابن أبى غلامه يستقى فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ماحبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر فقال ابن أبى مامثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزلها الله تعالى (ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون) تعليل للأمر بالمغفرة والمراد بالقوم المؤمنون والتنكير لمدحهم والثناء عليهم أى أمروا بذلك ليجزى يوم القيامة قوماً أيما قوم قوماً مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه مايقصر عنه البيان من الثواب العظيم هذا وقد جوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كانوا يكسبون سيئاتهم التى من جملتها ماحكى من الكلمة الخبيثة والتنكير للتحقير وفيه أن مطلق الجزاء لا يصلح تعليلا للأمر بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلابد من تخصيصه بالكل بأن لا يتحقق بعض منه فى الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات وفى ذلك من التكلف مالا

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ٤٥ الجاثية

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ٤٥ الجاثية

ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ٤٥ الجاثية

إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ٤٥ الجاثية

هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ٤٥ الجاثية

يخفى وأن يراد كلا الفريقين وهو أكثر تكلفاً وأشد تمحلا وقرىء ليجزى قوم وليجزى قوماً أى ليجزى الجزاء قوماً وقرىء لنجزى بنون العظمة (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) لايكاد ١٥ يسرى عمل إلى غير عامله (ثم إلى ربكم) مالك أموركم (ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم خيراً كان أو * شراً (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب) أى التوراة (والحكم) أى الحكمة النظرية والعملية والفقه ١٦ فى الدين أو فصل الخصومات بين الناس إذ كان الملك فيهم (والنبوة) حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم * يكثر فى غيرهم (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله تعالى من اللذائذ كالمن والسلوى (وفضلناهم على * العالمين) حيث آتيناهم مالم يؤت من عداهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما وقيل على عالمى زمانهم (وآتيناهم بينات من الأمر) دلائل ظاهرة فى أمر الدين ومعجزات قاهرة وقال ابن عباس رضى الله ١٧ عنهما هو العلم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وما بين لهم من أمره وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ماجاءهم العلم) بحقيقته وحقيته فجعلوا * مايوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه (بغياً بينهم) أى عداوة وحسداً لاشكا فيه (إن ربك يقضى * بينهم يوم القيامة) بالمؤاخذة والجزاء (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين (ثم جعلناك على شريعة) ١٨ أى سنة وطريقة عظيمة الشأن (من الأمر) أى أمر الدين (فاتبعها) بإجراء أحكامها فى نفسك وفى * غيرك من غير إخلال بشىء منها (ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) أى آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة * التابعة للشهوات وهم رؤساء قريش كانوا يقولون له عليه الصلاة والسلام ارجع إلى دين آبائك (إنهم ١٩ لن يغنوا عنك من الله شيئاً) مما أراد بك إن اتبعتهم (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) لايواليهم * ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم (والله ولى المتقين) الذين أنت قدوتهم قدم على ما أنت عليه * من توليه خاصة والإعراض عما سواه بالكلية (هذا) أى القرآن أو اتباع الشريعة (بصائر للناس) ٢٠

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ٤٥ الجاثية

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ٤٥ الجاثية

* فإن مافيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلةالبصائر فىالقلوب (وهدى) من ورطة الضلالة (ورحمة)
٢١ عظيمة (لقوم يوقنون) من شأنهم الإيقان بالأمور (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) استئناف
مسوق لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين إثر بيان تباين حالى الظالمين والمتقين وأم منقطعة وما فيها
من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى والهمزة لإنكار الحسبان لكن لا بطريق إنكار
الوقوع ونفيه كما فى قوله تعالى أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل
* المتقين كالفجار بل بطريق إنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه والاجتراح الاكتساب (أن
* نجعلهم) أى نصيرهم فى الحكم والاعتبار وهم على ماهم عليه من مساوى الأحوال (كالذين آمنوا وعملوا
* الصالحات) وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال ونعاملهم معاملتهم فى الكرامة ورفع الدرجة (سواء
محياهم ومماتهم) أى محيا الفريقين جميعاً ومماتهم حال من الضمير فى الظرف والموصول معاً لاشتماله على
ضميريهما على أن السواء بمعنى المستوى ومحياهم ومماتهم مرتفعان به على الفاعلية والمعنى أم حسبوا أن
نجعلهم كائنين مثلهم حال كون الكل مستوياً محياهم ومماتهم كلا لايستوون فى شىء منهما فإن هؤلاء فى
عز الإيمان والطاعة وشرفهما فى المحيا وفى رحمة الله تعالى ورضوانه فى الممات وأولئك فى ذل الكفر
والمعاصى وهوانهما فى المحيا وفى لعنة الله والعذاب الخالد فى الممات شتان بينهما وقد قيل المراد إنكار
أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة وإنما
يفترقون فى الممات وقرىء محياهم ومماتهم بالنصب على أنهما ظرفان كمقدم الحاج وسواء حال على حاله
أى حال كونهم مستوين فى محياهم ومماتهم وقد ذكر فى الآية الكريمة وجوه أخر من الإعراب والذى
يليق بجزالة التنزيل هو الأول فتدبر وقرىء سواء بالرفع على أنه خبر ومحياهم مبتدأ فقيل الجملة بدل
من الكاف وقيل حال وأياً ما كان فنسبة حسبان التساوى إليهم فى ضمن الإنكار التوبيخى مع أنهم
بمعزل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة فى الإنكار والتشديد فى التوبيخ فإن إنكار حسبان
* التساوى والتوبيخ عليه إنكار لحسبان الجزم بالفضل وتوبيخ عليه على أبلغ وجه وآكده (ساء
٢٢ مايحكمون) أى ساء حكمهم هذا أو بئس شيئاً حكموا به ذلك (وخلق الله السموات والأرض بالحق)
استئناف مقرر لما سبق من الحكم فإن خلق الله تعالى لهما ولما فيهما بالحق المقتضى للعدل يستدعى لامحالة
تفضيل المحسن على المسىء فى المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم وإذا لم يطرد ذلك فى المحيا فهو
* بعد الممات حتما (ولتجزى كل نفس بما كسبت) عطف على بالحق لأن فيه معنى التعليل إذ معناه خلقها
مقرونة بالحكمة والصواب دون البعث والباطل فحاصله خلقها لأجل ذلك ولتجزى الخ أو على علة

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ٤٥ الجاثية

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ٤٥ الجاثية

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ٤٥ الجاثية

محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ولتجزى (وهم) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس (لا يظلمون) بنقص ثواب أو بزيادة عقاب وتسمية ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك على ما عرف قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر بتنزيله منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده أى أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقضى منه العجب وقرىء آلهة هواه لأن أحدهم كان يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه فكأنه اتخذ آلهة شتى (وأضله الله) وخذله (على علم) أى عالماً بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها (وختم على سمعه وقلبه) بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات والنذر (وجعل على بصره غشاوة) مانعة عن الاستبصار والاعتبار وقرىء بفتح الغين وضمها وقرىء غشوة (فمن يهديه من بعد الله) أى من بعد إضلاله تعالى إياه بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه فى الغى (أفلا تذكرون) أى ألا تلاحظون فلا تذكرون وقرىء تتذكرون على الأصل (وقالوا) بيان لأحكام ضلالهم المحكى أى قالوا من غاية غيهم وضلالهم (ماهى) أى ما الحياة (إلا حياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيا) أى يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة وقيل نكون نطفاً وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا وقد جوز أن يريدوا به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان وقرىء نحيا (وما يهلكنا إلا الدهر) إلا مرور الزمان وهو فى الأصل مدة بقاء العالم من دهره أى غلبه وقرىء إلا دهر يمر وكانوا يزعمون أن المؤثر فى هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالى وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر الله تعالى ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر (وما لهم بذلك) أى بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا واستناد الحياة والموت إلى الدهر (من علم) ما مستند إلى عقلى أو نقلى (إن هم إلا يظنون) ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شىء يصح أن يتمسك به فى الجملة هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم (وإذا تتلى عليهم آياتنا) الناطقة بالحق الذى من جملته البعث (بينات) واضحات الدلالة على ما نطقت به أو مبينات له (ما كان حجتهم) بالنصب

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ٤٥ الجاثية

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ٤٥ الجاثية

هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ٤٥ الجاثية

---

* على أنه خبر كان أى ما كان متمسكا لهم شيء من الأشياء (إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) فى أنا نبعث بعد الموت أى هذا القول الباطل الذى يستحيل أن يكون من قبيل الحجة وتسمية حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو لأنه من قبيل [تحية بينهم ضرب وجيع] وقرىء

٢٦ برفع حجتهم على أنها اسم كان فالمعنى ما كان حجتهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القول الباطل (قل الله

* يحييكم) ابتداء (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر

* (ثم يجمعكم) بعد الموت (إلى يوم القيامة) للجزاء (لاريب فيه) أى فى جمعكم فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لامحالة والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها حتما

* والإتيان بآبائهم حيث كان مزاحماً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) استدراك من قوله تعالى لاريب فيه وهو إما من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم فى النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما

٢٧ (ولله ملك السموات والأرض) بيان لاختصاص الملك المطلق والتصرف الكلى فيهما وفيما بينهما

* بالله عز وجل إثر بيان تصرفه تعالى فى الناس بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة (ويوم تقوم

٢٨ الساعة يومئذ يخسر المبطلون) العامل فى يوم يخسر ويومئذ بدل منه (وترى كل أمة) من الأمم المجموعة

* (جاثية) باركة على الركب مستوفزة وقرىء جاذية أى جالسة على أطراف الأصابع والجذو أشد استيفازاً من الجثو وعن ابن عباس رضى الله عنهما جاثية مجتمعة وقيل جماعات من الجثو وهى الجماعة

* (كل أمة تدعى إلى كتابها) إلى صحيفة أعمالها وقرىء كل بالنصب على أنه بدل من الأول وتدعى

٢٩ صفة أو حال أو مفعول ثان (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) أى يقال لهم ذلك وقوله تعالى (هذا كتابنا) الخ من تمام مايقال حينئذ وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله تعالى أضيف إلى نون

* العظمة تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره فهذا مبتدأ وكتابنا خبره وقوله تعالى (ينطق عليكم) أى يشهد عليكم

* (بالحق) من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال وبالحق حال من فاعل ينطق وقوله تعالى (إنا كنا نستنسخ) الخ تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها أى إنا كنا فيما قبل نستكتب

* الملائكة (ما كنتم تعملون) فى الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ٤٥ الجاثية

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ ٤٥ الجاثية

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ٤٥ الجاثية

وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ٤٥ الجاثية

وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ٤٥ الجاثية

ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ٤٥ الجاثية

---

٣٠ وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) أى فى جنته تفصيل لما
* يفعل بالأمم بعد بيان ماخوطبوا به من الكلام المنطوى على الوعد والوعيد (ذلك) أى الذى ذكر من
٣١ الإدخال فى رحمته تعالى (هو الفوز المبين) الظاهر كونه فوزاً لافوز وراءه (وأما الذين كفروا أفلم
تكن آياتى تتلى عليكم) أى فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع ألم يكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتى
* تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه ثقة بدلالة القرينة عليه (فاستكبرتم) عن الإيمان بها (وكنتم قوماً
٣٢ مجرمين) أى قوماً عادتهم الإجرام (وإذا قيل إن وعد الله) أى ماوعده من الأمور الآتية أو وعده
* بذلك (حق) أى واقع لامحالة أو مطابق للواقع (والساعة) التى هى أشهر ما وعده (لاريب فيها)
أى فى وقوعها وقرىء والساعة بالنصب عطفاً على اسم إن وقراءة الرفع للعطف على محل إن واسمها
* (قلتم) لغاية عتوكم (ماندرى ما الساعة) أى أى شىء هى استغراباً لها (إن نظن إلا ظناً) أى مانفعل
إلا ظناً وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى إن أتبع إلا مايوحى إلى وقيل مانعتقد إلا ظناً أى لاعلماً وقيل مانحن
* إلا نظن ظناً وقيل مانظن إلا ظناً ضعيفاً ويرده قوله تعالى (ومانحن بمستيقنين) أى لامكانه فإن مقابل
٣٣ الإستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه ولعل هؤلاء غير القائلين ماهى إلاحياتنا الدنيا (وبدا لهم) أى ظهر
* لهم حينئذ(سيئات ماعملوا)على ماهى عليه من الصورة المنكرة الهائلة وعاينوا وخامة عاقبتها أو جزاءها
٣٤ فإن جزاء السيئة سيئة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) من الجزاء والعقاب (وقيل اليوم ننساكم) نترككم
* فى العذاب ترك المنسى (كما نسيتم) فى الدنيا (لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم عدته ولم تبالوا به وإضافة
* اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) أى ما لأحد منكم
٣٥ ناصر واحد يخلصكم منها (ذلكم) العذاب (بأنكم) بسبب أنكم (اتخذتم آيات الله هزواً) مهزوءاً

فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ٤٥ الجاثية

* بها ولم ترفعوا لها رأساً (وغرتكم الحياة الدنيا) فحسبتم أن لاحياة سواها (فاليوم لايخرجون منها) أى من النار وقرىء يخرجون من الخروج والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب
* استهانة بهم أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار (ولا هم يستعتبون) أى يطلب منهم أن يعتبوا
٣٦ ربهم أى يرضوه لفوات أوانه (فلله الحمد) خاصة (رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فلايستحق الحمد أحد سواه وتكرير الرب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل منها بطريق الأصالة وقرىء
٣٧ برفع الثلاثة على المدح بإضمار هو (وله الكبرياء فى السموات والأرض) لظهور آثارها وأحكامها
* فيهما وإظهارهما فى موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء (وهو العزيز) الذى لايغلب (الحكيم) فى كل ماقضى وقدر فاحمدوه وكبروه وأطيعوه . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الجاثية ستر الله تعالى عورته وسكن روعته يوم الحساب .

﴿ سورة الجاثية ٤٥ ﴾

وتسمى سورة الشريعة. وسورة الدهر كما حكاه الكرمانى فى العجائب لذكرهما فيها ، وهى مكية قال ابن عطية: بلا خلاف ، وذكر الماوردى الا (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية فمدنية ، وحكى هذا الاستثناء فى جمال القراء عن قتادة ، وسيأتى الكلام فى ذلك إن شاء الله تعالى . وهى سبع وثلاثون آية فى الكوفى وست وثلاثون فى الباقية لاختلافهم فى (حم) هل هى آية مستقلة أولا ، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها فى غاية الوضوح *

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * حم ١ ﴾ ان جعل اسما للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هذا مسمى بحم ، وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ ﴾ صلته أو خبر ثالث أو حال من (تنزيل) عاملها معنى الاشارة أو من (الكتاب) الذى هو مفعول معنى عاملها المضاف ، وقيل : (حم) مبتدأ وهذا خبره والكلام على المبالغة أيضا أو تأويل (تنزيل) بمنزل ، والإضافة من اضافة الصفة لموصوفها ، واعتبار المبالغة أولى أى المسمى به تنزيل الخ . وتعقب بأن الذى يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لا عهد بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها ، وجوز جار الله جعل « حم » مبتدأ بتقدير مضاف أى تنزيل حم و(تنزيل) المذكور خبره و(من الله) صلته ، وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر ايذانا بأنه الكتاب الكامل إن أريد بالكتاب السورة ، وفيه تفخيم ليس فى تنزيل حم تنزيل من الله ، ولهذا لما لم يراع فى حم السجدة هذه النكتة عقب بقوله تعالى : (كتاب فصلت) ليفيد هذه الفائدة مع التفنن فى العبارة ، وان اريد الكتاب كله فللاشعار بأن تنزيله كانزال الكل فى حصول الغرض من التحدى والتهدى ، فدعوى عراء هذا الوجه عن فائدة يعتد بها عراء عن انصاف يعتد به . وإن جعل تعديدا للحروف فلا حظ له من الاعراب وكان « تنزيل » خبر مبتدأ مضمر يلوح به ما قبله أى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب أو مبتدأ خبره الظرف بعده على ما قاله جار الله ، وقيل : « حم » مقسم به ففيه حرف جر مقدر وهو فى محل جر أو نصب على الخلاف المعروف فيه و« تنزيل » نعت مقطوع فهو خبر مبتدأ مقدر والجملة مستأنفة وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣ ﴾ وهو على ما تقدم استئناف للتنبيه على الآيات التكوينية ، وجوز أن يكون « تنزيل الكتاب من الله » مبتدأ وخبرا والجملة جواب القسم ، وهو خلاف الظاهر ، وقيل : يقدر « حم » على كونه مقسما به مبتدأ محذوف الخبر أى حم قسمى ويكون « تنزيل » نعتا له غير مقطوع ، وعلى سائر الاوجه قوله سبحانه : (العزيز الحكيم) نعت للاسم الجليل *

وجوز الامام كونه صفة للكتاب الا أنه رجح الأول بعد احتياجه الى ارتكاب المجاز مع زيادة قرب الصفة من الموصوف فيه ، وأوجبه أبو حيان لما فى الثانى من الفصل بين الصفة والموصوف الغير الجائز *

وقوله عز وجل : « إن فى السموات » الخ يجوز أن يكون بتقدير مضاف أى إن فى خلق السموات كما رواه الواحدى عن الزجاج لما أنه قد صرح به فى آية أخرى والقرآن يفسر بعضه بعضا ، ويناسبه قوله عز وجل :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ الى آخره ، ويجوز أن يكون على ظاهره وحينئذ يكون على أحد وجهين . أحدهما إن فيهما لآيات أي ما فيهما من المخلوقات كالجبال والمعادن والكواكب والنيرين وعلى هذا يكون قوله سبحانه (وفي خلقكم) من عطف الخاص على العام . والثاني أن أنفسهما لآيات لما فيها من فنون الدلالة على القادر الحكيم جل شأنه، وهذا أظهر وهو أبلغ من أن يقال : إن في خلقهما الآيات وإن كان المعنى آيلا اليه، و «في خلقكم» خبر مقدم وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ عطف على خلق ، وجوز في (ما) كونها مصدرية وكونها موصولة إما بتقدير مضاف أي وفي خلق ما ينشره ويفرقه من دابة أو بدونه ه

وجوز عطفه على الضمير المتصل المجرور بالاضافة وما موصولة لا غير على الظاهر ، وهو مبني على جواز العطف على الضمير المتصل المجرور من غير اعادة الجار وذلك مذهب الكوفيين . ويونس . والاخفش ، قال أبو حيان :وهو الصحيح ، واختاره الاستاذ أبو على الشلوبين ، ومذهب سيبويه . وجمهور البصريين منع العطف المذكور سواء كان الضمير مجرورا بالحرف أو بالاضافة لشدة الاتصال فأشبه العطف على بعض الكلمة.

وذكر ابن الحاجب في شرح المفصل في باب الوقف منه أن بعض النحويين يجوزون العطف في المجرور بالاضافة دون المجرور بالحرف لأن اتصال المجرور بالمضاف ليس كاتصاله بالجار لاستقلال كل واحد منهما بمعناه فلم يشتد اتصاله فيه اشتداده مع الحرف وأجاز الجرمي. والزيادي العطف إذا أكد الضمير المتصل بمنفصل نحو مررت بك أنت وزيد وقوله تعالى ﴿ ءَايَاتٌ ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على جملة «ان في السموات» الخ. وقرأ أبي وعبد الله «لآيات» باللام كذا في البحر ولم يبين أن آيات مرفوع أو منصوب ، فان كان منصوبا فاللام زائدة في اسم إن المتقدم عليه خبرها وهو أحد مواضع زيادته المطردة الكثيرة ، وإن كان مرفوعا فهي زائدة في المبتدا ويقل زيادتها فيه ، وحسن زيادتها هنا تقدم ان في الجملة المعطوف عليها فهو كقوله :

إن الخلافة بعدهم لذميمة وخلائف ظرف لما أحقر

وقرأ زيد بن علي «آية» بالافراد . وقرأ الأعمش . والجحدري . وحمزة. والكسائي . ويعقوب «آيات» بالجمع والنصب على أنها عطف على «آيات» السابق الواقع اسما لأن و«في خلقكم» معطوف على «في السموات» فكأنه قيل : وان في خلقكم وما يبث من دابة آيات ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالاشياء على ما هي عليه ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ بالجر على اضمار في ، وقد قرأ عبد الله بذكره. وجاء حذف الجار مع ابقاء عمله كما في قوله :

إذا قيل أي الناس شر قبيلة أشارت كليب بالاكف الاصابع

وحسن ماهنا ذكر الجار في الآيتين قبل . وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره (آيات) بعد، والمراد باختلافهما تعاقبهما أو تفاوتهما طولا وقصرا ، وقيل: اختلافهما في أن أحدهما نور والآخر ظلمة ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ عطف على (اختلاف) ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ جهة العلو ، وقيل: السحاب ،وقيل : الجرم المعروف بضرب من التأويل ه

﴿ مِنْ رِزْقٍ ﴾ من مطر ، وسمي رزقا لأنه سببه فهو مجاز ، ولو لم يؤول صح لأنه في نفسه رزق أيضا ه

﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزرع والثمرات والنبات ، والسببية عادية اقتضتها الحكمة

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال، وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه فى الوجود إما للايذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس بمجرد كونه مبدأ لانشاء المطر بل له ولسائر المنافع التى من جملتها سوق السفن فى البحار.

وقرأ زيد بن على. وطلحة. وعيسى (وتصريف الريح) بالافراد ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور أعنى (فى اختلاف) على ما سمعت، والجملة معطوفة على ماقبلها.

وقيل: إن (اختلاف) بالجر عطف على (خلقكم) المجرور بفى قبله و(آيات) عطف على آيات السابق المرفوع بالابتداء، وفيه العطف على معمولى عاملين مختلفين، ومن الناس من يمنعه وهم أكثر البصريين، ومنهم من يجيزه وهم أكثر الكوفيين، ومنهم من يفصل فيقول: وهو جائز فى نحو قولك: فى الدار زيد والحجرة عمرو وغير جائز فى نحو قولك: زيد فى الدار وعمرو الحجرة لأن الأول يلى المجرور فيه العاطف فقام العاطف مقام الجار، والثانى لم يل فيه المجرور العاطف فكان فيه إضمار الجار من غير عوض، وتمام الكلام فى هذه المسألة فى محله، وقيل: إن (اختلاف) عطف على المجرور قبله و(آيات) خبر مبتدأ محذوف أى هى آيات، واختاره من لم يجوز العطف على معمولى عاملين ويقول بضعف حذف الجار مع بقاء عمله وإن تقدمه ذكر جار.

وقال أبو البقاء: (آيات) مرفوع على التأكيد لآيات السابق وهم يعيدون الشىء إذا طال الكلام فى الجملة للتأكيد والتذكير. وتعقب بأن ذلك إنما يكون بعين ماتقدم واختلاف الصفات يدل على تغاير الموصوفات فلا وجه للتأكيد، وأيضا فيه الفصل بين المعطوف المجرور والمعطوف عليه وبين المؤكد والمؤكد وهو إن جاز يورث تعقيدا ينافى فصاحة القرآن العظيم. وقرأ (آيات) هنا بالنصب من قرأها هناك به فهى مفعول لفعل محذوف أى أعنى آيات، وقيل: العاطف فى قوله تعالى (واختلاف) عطف اختلاف على المجرور بفى قبل وعطفها على اسم إن وهو مبنى على جواز العطف على معمولى عاملين، وقال أبو البقاء: هى منصوبة على التأكيد والتكرير لاسم إن نحو إن بثوبك دما وبثوب زيد دما، ومر آنفا ما فيه.

وقال بعضهم: إنها اسم إن مضمرة وهى قد تضمر ويبقى عملها، ذكر أبو حيان فى الارتشاف فى الكلام على إن من خير الناس أو خيرهم زيد أن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدى ذهب إلى نصب خيرهم ورفع زيد فاسم إن محذوف وأو خيرهم منصوب باضمار إن لدلالة إن المذكورة تقديره إن من خير الناس زيدا وإن خيرهم زيد. وقد أقر الشاطبى تخريج النصب فى الآية على ذلك لكن نقله السفاقسى عن أبى البقاء ورده بأن إن لا تضمر.

وقال ابن هشام فى آخر الباب الرابع من المغنى: إنه بعيد، والظاهر أنه لابد عليه من إضمار الجار فى (اختلاف) وحينئذ لا يخفى حاله، وسائر القراءات مروية هنا عمن رويت عنه فيما تقدم، وتنكير «آيات» فى الآيات للتفخيم كما وكيفا، والمعنى إن المنصفين من العباد إذا نظروا فى السموات والارض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنها لابد لها من صانع فآمنوا بالله تعالى وأقروا، وإذا نظروا فى خلق أنفسهم وتنقلها من حال الى حال وهيئة

الى أخرى وفى خلق ما على ظهر الارض من صنوف الحيوان ازدادوا ايمانا وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فاذا نظروا فى سائر الحوادث التى تتجدد فى كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الامطار وحياة الارض بعد موتها وتصريف الرياح جنوبا وشمالا وقبولا ودبورا وشدة وضعفا وحرارة وبرودة عقلوا واستحكم علمهم وخاص يقينهم كذا فى الكشاف ومنه يعلم نكتة اختلاف الفواصل ه

وفى الكشف أنه ذكر ما حاصله أنه على سبيل الترقى وهو يوافق ماعليه الصوفية وغيرهم من أن الايقان مرتبة خاصة فى الايمان ، ثم العقل لما كان مدارهما أى الايمان والايقان ونعنى به العقل المؤيد بنور البصيرة جعله لخلوص الايقان من اعتراء الشكوك من كل وجه فى استحكامه كل خير ، وروعى فى ترتيب الآيات ما روعى فى ترتيب المراتب الثلاث من تقديم ما هو أقدم وجودا ، ولا يلزم أن تكون الآية الثانية أعظم من الاولى ولا الثالثة من الثانية لما ذكره من أن الجامع بين النظرين موقن وبين الثلاثة عاقل على أنها كذلك فى تحصيل هذا الغرض فان كانت أعظم من وجه آخر فلا بأس فان النظر الى حال نفسه وما هو من نوعه ثم جنسه من سائر الاناسى والحيوان للقرب والتكرر وكثرة العدد أدخل فى انتفاء الشك وحصول اليقين وإن كان النظر فى السماء والأرض أتم دلالة على كمال القدرة والعلم فذلك لا يضر ولا هو المطلوب ههنا ثم النظر الى الاختلاف المذكور أدل على استحكام ذلك اليقين من حيث أنه يتجدد حينا فحينا ويبعث على النظر والاعتبار كلما تجدد هذا ، والتحقيق أن تمام النظر فى الثانى يضطر الى النظر فى الأول لأن السموات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه ، وكذلك النظر فى الثالث يضطر الى النظر فى الأولين ، أما على الأول فظاهر وأما على الثانى فلأنه العلة الغائية فلا بد من أن يكون جامعا انتهى ، وهو كلام نفيس جداً ه

وقال الامام فى ترتيب هذه الفواصل . أظن أن سببه أنه قيل ان كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين بل كنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل ، ولا يخفى أنه فاته ذلك التحقيق ولم يختر الترقى وهو بالاختيار حقيق ، والمغايرة بين ما هنا وما فى سورة البقرة أعنى (إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) الآية للتفنن والكلام المعجز مملوء منه ، وذكر الامام فى ذلك مالا يهش له السامع فتأمل ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ مبتدأ وخبر ، وقوله تعالى : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حال عاملها معنى الاشارة نحو (هذا بعلى شيخا) على المشهور ، وقيل : هو الخبر و (آيات الله) بدل أو عطف بيان وقوله سبحانه : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ حال من فاعل (نتلوها) أو من مفعوله أى نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق فالباء للملابسة ويجوز أن تكون للسببية الغائية ، والمراد بالآيات المشار اليها إما آيات القرآن أو السورة أو ما ذكر قبل من السموات والأرض وغيرهما فتلاوتها بتلاوة ما يدل عليها ، وفسرت بالسرد أى نسردها عليك ه

وقال ابن عطية : الكلام بتقدير مضاف أى نتلوا شأنها وشأن العبرة بها . وقرىء (يتلوها) بالياء على أن الفاعل ضميره تعالى والمراد على القراءتين تلاوتها عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بواسطة الملك عليه السلام ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦ ﴾ هو من باب قولهم : أعجبنى زيد وكرمه يريدون أعجبنى كرم زيد إلا أنهم عدلوا عنه للمبالغة فى الاعجاب أى فبأي حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون ، وفيه

دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان ولا آية أدل من هذه الآية، وتفخيم شأن الآيات من اسم الاشارة وإضافتها إلى الله عز وجل، وجعل (نتلوها) حالا مع ضمير التعظيم ثم تكرير الاسم الجليل للنكتة المذكورة وإضافتها اليه بواسطة الضمير مرة أخرى، وقد ذكر ذلك الزمخشرى وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بشىء لأن فيه من حيث المعنى اقحام الاسماء من غير ضرورة والعطف، والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل لأن تقدير كرم زيد انما يكون فى أعجبنى زيد كرمه بغير واو على البدل وهذا قلب لحقائق النحو، وإنما المعنى فى المثال ان ذات زيد أعجبته وأعجبه كرمه فهما إعجابان لا إعجاب واحد وهو مبنى على عدم التعمق فى فهم كلام جار الله *

ومن تعمق فيه لا يرى أنه قائل بالاقحام وإنما بيان حاصل المعنى يوهمه، وبين هذه الطريقة وطريقة البدل مغايرة تامة، فقد ذكر أن فائدة هذه الطريقة وهى طريقة إسناد الفعل إلى شىء والمقصود إسناده إلى ما عطف عليه قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه من جهة الدلالة على أنه صار من التلابس بحيث يصح أن يسند أوصافه وأفعاله وأحواله إلى الأول قصدا لأنه بمنزلته ولا كذلك البدل لأن المقصود فيه بالنسبة هو الثانى فقط وهنا هما مقصودان، فان قلت: إذا لم يكن ذلك الوصف منسوبا للمعطوف عليه لزم إقحامه كما قال أبو حيان، وما يذكر من المبالغة لا يدفع المحذور، وعلى فرض تسليمه فدلالته على ما ذكر بأى طريق من طرق الدلالة المشهورة *

أجيب بأنه غير منسوب اليه فى الواقع لكن لما كان بينهما ملابسة تامة من جهة ما كون الآيات ههنا باذنه تعالى أو مرضية له عز وجل جعل كأنه المقصود بالنسبة وكنى بها عن ذلك الاختصاص كناية إيمائية ثم عطف عليه المنسوب اليه وجعل تابعا فيها وبهذا غاير البدل مغايرة تامة غفل عنها المعترض فالنسبة بتمامها مجازية كذا قرره بعض المحققين *

وقال الواحدى: أى فبأى حديث بعد حديث الله أى القرآن وقد جاء إطلاقه عليه فى قوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث) وحسن الاضمار لقرينة تقدم الحديث، وقوله سبحانه: (وآياته) عطف عليه لتغايرهما إجمالا وتفصيلا لأن الآيات هى ذلك الحديث ملحوظ الأجزاء، وإن أريد ما بين فيه من الآيات والدلائل فليس من عطف الخاص على العام لأن الآيات ليست من القرآن وإنما وجه دلالتها وإيرادها منه فيكون فى هذا الوجه الدلالة أيضا على حال البيان والمبين كما فى الوجه الأول، وقال الضحاك: أى فبأى حديث بعد توحيد الله ولا يخفى أنه بظاهره مما لا معنى له فلعله أراد بعد حديث توحيده تعالى أى الحديث المتضمن ذلك أو هو بعد تقدير المضاف من باب أعجبنى زيد وكرمه، وأياما كان فالفاء فى جواب شرط مقدر والظرف صفة (حديث) وجوز أن يكون متعلقا بيؤمنون قدم للفاصلة *

وقرأ ابن عامر. وأبو بكر. وحمزة. والكسائى (تؤمنون) بالتاء الفوقانية وهو موافق لقوله تعالى: (وفى خلقكم) بحسب الظاهر والصورة وإلا فالمراد هنا الكفار بخلاف ذلك *

وقرأ طلحة (توقنون) بالتاء الفوقانية والقاف من الايقان ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الافك أى الكذب ﴿أَثِيمٍ ٧﴾ كثير الاثم، والآية نزلت فى أبى جهل، وقيل: فى النضر بن الحرث وكان يشترى حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن لكنها عامة كما هو مقتضى كل ويدخل من نزلت فيه دخولا أوليا، و(أثيم) صفة (أفاك) وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ صفة أخرى له، وقيل استئناف، وقيل حال من الضمير فى (أثيم)

وقوله سبحانه ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من (آيات الله) ولم يجوز جعله مفعولا ثانيا ليسمع لأن شرطه أن يكون مابعده مما لا يسمع كسمعت زيدا يقرأ، والظاهر أن المراد بتتلى الاستمرار لأنه المناسب للاستبعاد المدلول عليه بقوله عزوجل ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ فان ثم لاستبعاد الاصرار بعد سماع الآيات وهى للتراخى الرتبى ويمكن إبقاؤه على حقيقته إلا أن الأول أبلغ وأنسب بالمقام، ونظير ذلك فى الاستبعاد قول جعفر بن علبة :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة   يرى غمرات الموت ثم يزورها

والاصرار على الشىء ملازمته وعدم الانفكاك عنه من الصر وهو الشد ومنه صرة الدراهم، ويقال: صر الحمار أذنيه ضمهما صرا وأصر الحمار ولا يقال أذنيه على مافى الصحاح وكأن معناه حينئذ صار صارا أذنيه ه

والمراد هنا ثم يقيم على كفره وضلاله ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الايمان بالآيات وهو حال من ضمير (يصر) وقوله سبحانه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال بعد حال أو حال من ضمير (مستكبرا) وجوز الاستئناف، و(كأن) مخففة من كأن بحذف إحدى النونين واسمها ضمير الشأن، وقيل: لاحاجة إلى تقديره كما فى أن المفتوحة، والمعنى يصر مستكبرا مثل غير السامع لها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨﴾ على إصراره ذلك، والبشارة فى الأصل الخبر المغير للبشرة خيرا كان أو شرا، وخصها العرف بالخبر السار فان أريد المعنى العرفى فهو استعارة تهكمية أوهو من قبيل ه تحية بينهم ضرب وجيع ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شىء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، وجوز أن يكون المعنى وإذا علم من آياتنا شيئا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه واتخذ آيات الله تعالى هزوا وذلك نحو اعتراض ابن الزبعرى فى قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ومغالطته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله على مافى بعض الروايات : خصمتك فضمير (اتخذها) على الوجهين للآيات، والفرق بينهما أن (شيئا) على الثانى فيه تخصيص لقرينة (اتخذها هزوا) إذ لا يحتمل إلا ما يحسن أن يخيل فيه ذلك ثم يجعله دستورا للباقى فيقول : الكل من هذا القبيل، وفرق بين الوجهين أيضا بأن فى الأول الاتخاذ قبل التأمل وفى الثانى بعده وبعد تمييز آية عن أخرى، وقيل : الاستهزاء بما علمه من الآيات إلا أنه أرجع الضمير إلى الآيات لأن الاستهزاء بواحدة منها استهزاء بكلها لما بينها من التماثل، وجوز أن يرجع الضمير إلى شىء والتأنيث لأنه بمعنى الآية كقول أبى العتاهية :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة   الله والقائم المهدى يكفيها

يعنى الشىء وأراد به عتبة جارية للمهدى من حظاياه وكان أبو العتاهية يهواها فقال ماقال . وقرأ قتادة . ومطر الوراق (علم) بضم العين وشد اللام مبنيا للمفعول ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح، والجمع باعتبار الشمول للكل كما فى قوله تعالى : «كل حزب بما لديهم فرحون» كما أن الافراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد، وأداة البعد للاشارة إلى بعد منزلتهم فى الشر ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ٩﴾ وصف العذاب بالاهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم

بآيات الله عز وجل ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى من قدامهم لأنهم متوجهون اليها أو من خلفهم لأنهم معرضون عن الالتفات اليها والاشتغال عما ينجيهم منها مقبلون على الدنيا والانهماك فى شهواتها ، والوراء تستعمل فى هذين المعنيين لأنها اسم للجهة التى يواريها الشخص فتعم الخلف والقدام ، وقيل فى توجيه الخلفية : إن جهنم لما كانت تتحقق لهم بعد الأجل جعلت كأنها خلفهم ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُمْ﴾ ولا يدفع ﴿مَا كَسَبُوا﴾ أى الذى كسبوه من الأموال والأولاد ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله تعالى أو شيئا من الاغناء على أن «شيئا» مفعول به أو مفعول مطلق ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ أى الذى اتخذوه ﴿مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى الأصنام *

وجوز أن تفسر (١٠) بما يعمها وسائر المعبودات الباطلة ، والأول أظهر، وجوز فى «ما» فى الموضعين أن تكون مصدرية ، وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعا مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم ، وفيه تهكم ﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ لا يقادر قدره ﴿هَذَا﴾ أى القرآن كما يدل عليه مابعد وكذا ماقبل « كيسمع آيات الله . وإذا علم من آياتنا . وتلك آيات الله نتلوها» ﴿هُدًى﴾ فى غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعنى القرآن أيضا على أن الاضافة للعهد ، وكان الظاهر الاضمار لكن عدل عنه إلى مافى النظم الجليل لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم ، وجوز أن يراد بالآيات مايشمله وغيره *

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾ من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ ١١﴾ بالرفع صفة «عذاب» أخر للفاصلة *

وقرأ غير واحد من السبعة «أليم» بالجر على أنه صفة «رجز» ، وجعله صفة «عذاب» أيضا والجر للمجاورة مما لا ينبغى أن يلتفت اليه ، وقيل : على قراءة الرفع إن الرجز بمعنى الرجس الذى هو النجاسة ، والمعنى لهم عذاب أليم من تجرع رجس أو شرب رجس والمراد به الصديد الذى يتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه ولا داعى لذلك كما لا يخفى ، وتنوين «عذاب» فى المواقع الثلاثة للتفخيم ، ورفعه إما على الابتداء وإما على الفاعلية للظرف ﴿اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره تعالى إياه وتسهيل استعمالها فيما يراد بها ، وقيل : بتكوينه تعالى أو باذنه عز وجل ، وسياق الامتنان يقتضى أن يكون المعنى لتجرى الفلك فيه وأنتم راكبوها * ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢﴾ ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك ، وهذا أعنى « الله الذى سخر» الخ ذكر تتميما للتقريع ولهذا رتب عليه الأغراض العاجلة فانه مما يستوجب الشكر غالبا للكافر أيضا فكأنه قيل: تلك الآيات أولى بالشكر ولهذا عقب بما يعم القسمين أعنى قوله سبحانه : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ أى من الموجودات بان جعل فيها منافع لكم منها ظاهرة ومنها خفية ، وعقب بالتفكر لينبه على أن التفكر هو الذى يؤدى إلى ماذكر من الأولوية ويدل به على أن التفكر ملاك الأمر فى ترتيب الغرض على ماجعل آية من الايمان والايقان والشكر ﴿جَمِيعًا﴾ حال

من (ما في السموات وما في الأرض) أو توكيد له وقوله تعالى: ﴿ مِنْهُ ﴾ حال من ذلك أيضا، والمعنى سخر هذه الأشياء جميعا كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه سبحانه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه *

وجوز فيه أوجه أخر. الأول أن يكون خبر مبتدأ محذوف فقيل «جميعا» حينئذ حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور بناء على جواز تقدم الحال على مثل هذا العامل أو من المبتدأ بناء على تجويز الحال منه أي هي جميعا منه تعالى، وقيل: جميعا على ما كان ويلاحظ في تصوير المعنى فالضمير المبتدأ يقدر بعده ويعتبر رجوعه إلى ماتقدم بقيد جميعا، والجملة على القولين استئناف جيء به تأكيدا لقوله تعالى: «سخر» أي أنه عز وجل أوجدها ثم سخرها لا أنها حصلت له سبحانه من غيره كالملوك، الثاني أن يجعل «ما في السموات» مبتدأ ويكون هو خبره و(جميعا) حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صلة ويكون «وسخر لكم» تأكيدا للاول أي سخر وسخر، وفي العطف إيماء إلى أن التسخير الثاني كأنه غير الأول دلالة على أن المتفكر كلما فكر يزداد إيمانا بكمال التسخير والمنة عليه، وجملة (ما في السموات) الخ مستأنفة لمزيد بيان القدرة والحكمة *

واعترض بأنه إن أريد التأكيد اللغوي فهو لا يخلو من الضعف لأن عطف مثله في الجمل غير معهود، وإن أريد التأكيد الاصطلاحي كما قيل به في قوله تعالى: (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) فهو مخالف لما ذكره ابن مالك في التسهيل من أن عطف التأكيد يختص بثم، وقال الرضي: يكون بالفاء أيضا وهو ههنا بالواو ولم يجوزه أحد منهم وان لم يذكروا وجه الفرق على أنه قد تقرر في المعاني أنه لا يجري في التأكيد العطف مطلقا لشدة الاتصال، واعترض أيضا بأن فيه حذف مفعول «سخر» من غير قرينة وهذا كما ترى، الثالث أن يكون «ما في الأرض» مبتدأ و(منه) خبره ولا يخفى أنه ضعيف بحسب المساق *

وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يكن يفسر هذه الآية، ولعله ان صح محمول على أنه لم يبسط الكلام فيها، فقد أخرج ابن جرير عنه أنه قال فيها كل شيء هو من الله تعالى *

وأخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد. وابن المنذر. والحاكم وصححه. والبيهقي في الاسماء والصفات عن طاوس قال: جاء رجل الى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال: فمم خلق هؤلاء؟ قال: لا أدري ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو فأتى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فسأله مم خلق الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال: فمم خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه» فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا الا رجل من أهل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم *

واختلف أهل العلم فيما أراد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بذلك فقال البيهقي: أراد أن مصدر الجميع منه تعالى أي من خلقه وابداعه واختراعه خلق الماء أولا أو الماء وما شاء عز وجل من خلقه لا عن أصل ولا عن مثال سبق ثم جعله تعالى أصلا لما خلق بعده فهو جل شأنه المبدع وهو سبحانه البارىء لا إله غيره ولا خالق سواه اه، وعليه جميع المحدثين والمفسرين ومن حذا حذوهم، وقال الشيخ ابراهيم الكوراني من الصوفية: إن المخلوقات تعينات الوجود المفاض الذي هو صورة النفس الرحماني المسمى بالعماء وذلك أن

العماء قد انبسط على الحقائق التى هى أمور عدمية متميزة فى نفس الأمر والانبساط حادث والعماء من حيث اقترانه بالماهيات غير ذات الحق تعالى فانه سبحانه الوجود المحض الغير المقترن بها فالموجودات صور حادثة فى العماء قائمة به والله تعالى قيومها لأنه جل وعلا الأول الباطن الممد لتلك الصور بالبقاء ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث بذات الحق تعالى ولا كونه سبحانه مادة لها لأن وجوده تعالى مجرد عن الماهيات غير مقترن بها والمتعين بحسبها هو العماء الذى هو الوجود المفاض فأراد ابن عباس ان الاشياء جميعا منه تعالى أى من نوره سبحانه المضاف الذى هو العماء والوجود المفاض منه تعالى بايجاده جل شأنه، وبهذا ينطبق الجواب على السؤال من غير تكلف ولا محذور، ولو كان مراد ابن عباس مجرد ما ذكره البيهقى من أن مصدر الجميع من خلقه تعالى كان يكفى فى ذلك قوله تعالى: «الله خالق كل شىء» لكن السؤال انما وقع بهم ووقع الجواب بمنه فى تلاوته الآية فالظاهر أن ما فهمه السائل من تلاوته رضى الله تعالى عنه ليس مجرد ما ذكره بقرينة مدحه بقوله: ما كان ليأتى بهذا الخ فان ما ذكره البيهقى يعرفه كل من آمن بقوله تعالى: «الله خالق كل شىء» فلا يظهر حينئذ وجه لقول كل من ابن عمرو. وابن الزبير لا أدرى فانهما من أفضل المؤمنين بأن الله تعالى خالق كل شىء بل ما فهمه هو ما أشرنا اليه اه، وعليه عامة أهل الوحدة (وأجاب الاولون) بأن مراد ابن عباس قطع التسلسل فى السؤال بعد ذكر مادة لبعضها بأن مرجع الامر أن الاشياء كلها خلقت بقدرته تعالى لا من شىء وهو كلام حكيم يمدح قائله لم يهتد اليه ابن الزبير. وابن عمرو، ولا يعكر على هذا قوله تعالى: «أم خلقوا من غير شىء» لما قاله المفسرون فيه وسيأتى ان شاء الله تعالى فى محله فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، وقد أورد الحسين بن على ابن واقد فى مجلس الرشيد هذه الآية ردا على بعض النصارى فى زعمه ان قوله تعالى فى عيسى عليه السلام: «وروحا منه» يدل على ما يزعمه فيه عليه السلام من أنه ابن الله سبحانه وتعالى عما يصفون *

وحكى أبو الفتح. وصاحب اللوامح عن ابن عباس. وعبد الله بن عمرو. والجحدرى. وعبد الله بن عبيد بن عمير أنهم قرؤا «منة» بكسر الميم وشد النون ونصب التاء على أنه مفعول له أى سخر لكم ذلك نعمة عليكم، وحكاها عن ابن عباس أيضا ابن خالويه. لكن قال أبو حاتم: إن سند هذه القراءة اليه مظلم فاذا صح السند يمكن أن يقال فيما تقدم من حديث طاوس: إنه ذكر الآية على قراءة الجمهور ويحتمل أن له قراءتين فيها *

وقرأ مسلمة بن محارب كذلك الا أنه ضم التاء على تقدير هو أو هى منة، وعنه أيضا فتح الميم وشد النون وهاء الكتابة عائدة على الله تعالى أى انعامه وهو فاعل «سخر» على الاسناد المجازى كما تقول: كرم الملك أنعشنى أو هو خبر مبتدأ محذوف أى هذا أو هو منه تعالى، وجوزت الفاعلية فى قراءته الأولى، وتذكير الفعل لأن الفاعل ليس مؤنثا حقيقيا مع وجود الفاصل، والوجه الأول أولى وإن كان فيه تقدير ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فيما ذكر ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة الشأن كثيرة العدد ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾ فى بدائع صنعه تعالى وعظائم شأنه جل شأنه فان ذلك يجرهم الى الايمان والايقان والشكر *

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ حذف المقول لدلالة «يغفروا» عليه فانه جواب للامر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أى قل لهم اغفروا يغفروا ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أى يعفوا ويصفحوا عن

الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى باعدائه ونقمته فيهم فالرجاء مجاز عن التوقع و كذا الأيام مجاز عن الوقائع من قولهم : أيام العرب لوقائعها وهو مجاز مشهور وروى ذلك عن مجاهد أولا يأملون الاوقات التى وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها، والآية قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها *

وقال بعضهم : لانسخ لأن المراد هنا ترك النزاع فى المحقرات والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش ، وحكى النحاس . والمهدوى عن ابن عباس أنها نزلت فى عمر رضى الله تعالى عنه شتمه مشرك (١) بمكة قبل الهجرة فهم ان يبطش به فنزلت وروى ذلك عن مقاتل وهذا ظاهر فى كونها مكية كأخواتها، وارادة فهم أن يبطش به بعد الهجرة لأن المسلمين بمكة قبلها عاجزون مقهورون لايمكنهم الانتصار من المشركين والعاجز لايؤمر بالعفو والصفح غير ظاهر محتاج الى نقل، ودوام عجز كل من المسلمين غير معلوم بل من وقف على أحوال أبى حفص رضى الله تعالى عنه لايتوقف فى أنه قادر على ماهم به لايبالى بما يترتب عليه *

وهذا أولى فى الجواب من أن يقال: إن الامر بفعل ذلك بينه وبين الله تعالى بقلبه ليثاب عليه، نعم قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل ابن أبى غلامه ليستقى فأبطأ عليه فلما أتاه قال له: ماحبسك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر رضى الله تعالى عنه فقال ابن أبى: مامثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضى الله تعالى عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه فأنزل الله تعالى الآية ؛ وحكاه الامام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية، وكذا ماروى عن ميمون بن مهران قال: إن فنحاصا اليهودى قال: لما أنزل الله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) احتاج رب محمد فسمع بذلك عمر رضى الله تعالى عنه فاشتمل سيفه وخرج فبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى طلبه حتى رده ونزلت الآية ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤ ﴾ تعليل للامر بالمغفرة ، وجوز أن يكون تعليلا للامر بالقول لأنه سبب لامتثالهم المجازى عليه ، والمراد بالقوم المؤمنون الغافرون والتنكير للتعظيم، ولفظ القوم فى نفسه اسم مدح على مايرشد اليه الاشتقاق والاستعمال فى نحو ياابن القوم *

وفى هذا التنكير كمال التعريف والتنبيه على أنهم لايخفون نكروا أو عرفوا مع العلم بأن المجزى لايكون الا العامل وهو الغافر ههنا أى أمروا بذلك ليجزى الله تعالى يوم القيامة قوما أيما قوم وقوما مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الاعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والاغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه مالايحيط به نطاق البيان من الثواب العظيم، ومنهم من خص ما كسبوه بالمغفرة والصبر على الاذية، و (ما) فى الوجهين موصولة وجوز أن تكون مصدرية ، والباء للسببية أو للمقابلة أو صلة يجزى ، وجوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كسبوا سيآتهم التى من جملتها ايذاؤهم المؤمنين والتنكير للتحقير: وتعقب بأن مطلق الجزاء لايصلح تعليلا للامر بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلا بد من تخصيصه بالكل بأن لايتحقق بعض منه فى الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفى ذلك من التكلف ما لايخفى، وأن يراد كلا الفريقين والتنكير للشيوع ، وتعقب بأنه أكثر تكلفا وأشد تمحلا، والذى يشهد للوجه السابق ماروى عن سعيد بن المسيب قال: كنا بين يدى عمر رضى الله تعالى عنه فقرأ قارئ هذه الآية فقال: ليجزى عمر بما صنع ، وقرأ زيد بن على. وأبو عبد الرحمن. والاعمش.

(١) قيل هو من غفار اه منه

وأبو خليد. وابن عامر. وحمزة. والكسائى (لنجزى) بنون العظمة، وقرىء (ليجزى) بالياء والبناء للمفعول (قوم) بالرفع على أنه نائب الفاعل، وقرأ شيبة . وأبو جعفر بخلاف عنه كذلك الا إنهما نصبا (قوما) وروى ذلك عن عاصم، واحتج به من يجوز نيابة الجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول الصريح فيقول: ضرب بسوط زيدا فيما كسبوا نائب الفاعل ههنا ولا يجيز ذلك الجمهور، وخرجت هذه القراءة على أن القائم مقام الفاعل ضمير المصدر أى ليجزى هو أى الجزاء . ورد بأنه لا يقام مقامه عند وجود المفعول به أيضا على الصحيح، وأجازه الكوفيون على خلاف فى الاطلاق والاستحسان أو على أنه ضمير المفعول الثانى وهو الجزاء بمعنى المجزى به كما فى قوله تعالى: (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) وأضمر لدلالة السياق كما فى قوله سبحانه . (ولأبويه) والمفعول الثانى فى باب أعطى يقوم مقام الفاعل بلا خلاف وهذا من ذاك، وأبو البقاء اعتبر الخير بدل الجزاء المذكور أو على أن (قوما) منصوب بأعنى أو جزى مضمرا لدلالة المجهول على أن ثم جازيا واختاره أبو حيان. و(ليجزى) حينئذ من باب يعطى ويمنع وحيل بين العير والنزوان فمعناه ليفعل الجزاء ويكون هناك جملتان *

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ مالك أموركم ﴿ تُرْجَعُونَ ١٥ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم حسبما تقتضيه الحكمة خيرا على الخير وشرا على الشر، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ وهو التوراة على أن التعريف للعهد، وجوز جعله للجنس ليشمل الزبور والانجيل ولا يضر فى ذلك كون الزبور أدعية ومناجاة والانجيل أحكامه قليلة جدا ومعظم أحكام عيسى عليه السلام من التوراة لأن إيتاء الكتاب مطلقا منة ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ القضاء وفصل الامور بين الناس لأن الملك كان فيهم واختاره أبو حيان، أو الفقه فى الدين ويقال: لم يتسع فقه الاحكام على نبى ما اتسع على لسان موسى عليه السلام، أو الحكم النظرية الاصلية والعملية الفرعية ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ حيث كثر فيهم الانبياء عليهم السلام مالم يكثر فى غيرهم ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ المستلذات الحلال وبذلك تتم النعمة وذلك كالمن والسلوى ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٦ ﴾ حيث آتيناهم مالم نؤت غيرهم من فلق البحر واظلال الغمام ونظائرهما فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقا من بعض الوجوه لا من كلها ولا من جهة المرتبة والثواب فلا ينافى ذلك تفضيل أمة محمد ﷺ عليهم من وجه آخر ومن جهة المرتبة والثواب، وقيل: المراد بالعالمين عالمو زمانهم *

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ دلائل ظاهرة فى أمر الدين فمن بمعنى فى والبينات الدلائل ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام وبعضهم فسرها بها، وعن ابن عباس آيات من أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعلامات مبينة لصدقه عليه الصلاة والسلام ككونه يهاجر من مكة إلى يثرب ويكون أنصاره أهلها إلى غير ذلك مما ذكر فى كتبهم ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ فى ذلك الامر ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ بحقيقة الحال فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لرسوخه ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ عداوة وحسدا لاشكا فيه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧ ﴾ من أمر الدين ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ ﴾ أى سنة وطريقة من شرعه إذا سنه ليسلك، وفى البحر الشريعة فى كلام العرب الموضع الذى يرد منه الناس فى الانهار ونحوها

فشريعة الدين من ذلك من حيث يرد الناس منها أمر الله تعالى ورحمته والقرب منه عز وجل ، وقال الراغب: الشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج فقيل له شرع وشرعة وشريعة واستعير ذلك للطريقة الالهية من الدين ثم قال :قال بعضهم سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة والصدق روى وتطهر، وأعنى بالري ماقال بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أروى فلما عرفت الله تعالى رويت بلا شرب ، وبالتطهر ماقال عز وجل: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) والظاهر هنا المعنى اللغوى، والتنوين للتعظيم أى شريعة عظيمة الشأن ﴿ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ أى أمر الدين ، وجوز أبو حيان كونه مصدر أمر، والمراد من الامر والنهى وهو كما ترى ﴿ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ ﴾ أى آراء الجهال التابعة للشهوات، والمراد بهم مايعم كل ضال ، وقيل : هم جهال قريظة. والنضير ، وقيل : رؤساء قريش كانوا يقولون له ﷺ : ارجع إلى دين آبائك .

﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ من الأشياء أو شيئا من الاغناء ان اتبعتهم والجملة مستأنفة مبينة لعلة النهى ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالما مثلهم .

﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ١٩ ﴾ الذين أنت قدوتهم فدم على ماأنت عليه من توليه سبحانه خاصة والاعراض عما سواه عز وجل بالكلية ﴿ هَٰذَا ﴾ أى القرآن ﴿ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ فان مافيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب ، وقيل : الاشارة إلى اتباع الشريعة والكلام من باب التشبيه البليغ، وجمع الخبر على الوجهين باعتبار تعدد ما تضمنه المبتدأ واتباع مصدر مضاف فيعم ويخبر عنه بمتعدد أيضا ،وقرىء (هذه) أى الآيات ﴿ وَهُدًى ﴾ جليل من ورطة الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠ ﴾ من شأنهم الإيقان بالأمور ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ إلى آخره استئناف مسوق لبيان حال المسيئين والمحسنين إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و(أم) منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى، والهمزة لإنكار الحسبان على معنى أنه لا يليق ولا ينبغى لظهور خلافه، والاجتراح الاكتساب ومنه الجارحة للاعضاء التى يكتسب بها كالأيدى ، وجاء هو جارحة أهله أى كاسبهم ، وقال الراغب : الاجتراح اكتساب الاثم وأصله من الجراحة كما أن الاقتراف من قرف القرحة، والظاهر تفسيره ههنا بالاكتساب لمكان (السيئات) والمراد بها على ما فى البحر سيئات الكفر ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ ﴾ سادمسد مفعولى الحسبان، والجعل بمعنى التصيير وهم مفعوله الأول، وقوله سبحانه : ﴿ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ مفعوله الثانى ، وقوله عز وجل : ﴿ سَوَاءً ﴾ بدل من الكاف بناء على أنها اسم بمعنى مثل ، وقوله تعالى : ﴿ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ فاعل سواء أجرى مجرى مستو كما قالوا : مررت برجل سواء هو والعدم، وضمير الجمع للمجترحين، والمعنى على إنكار حسبان جعل محيا المجترحين ومماتهم مستويين مثلهما للمؤمنين، ومصب الانكار استواء ذلك فان المؤمنين تتوافق حالاهم لأنهم مرحومون فى المحيا والممات وأولئك تتضاد حالاهم فانهم مرحومون حياة لاموتا ؛ وجوز أن يكون (سواء) حالا من الضمير فى الكاف بناء على ما سمعت من معناها .

و تعقب بأنها اسم جامد على صورة الحرف فلا يصح استتار الضمير فيها وقد صرح الفارسى بمنع ذلك، نعم يجوز أن يكون (كالذين) جارا ومجرورا فى موضع المفعول الثانى و (سواء) حالا من الضمير المستتر فيه ، وقيل: يجوز أيضا كونه حالا من ضمير نجعلهم و كذا يجوز كونه المفعول الثانى، و كون الكاف أو الجار والمجرور حالا من هذا الضمير، وماذكر أولا أظهر وأولى ، وجوز كون ضمير الجمع فى (محياهم ومماتهم) للمؤمنين فسواء حال من الموصول الثانى ولا يجوز أن يكون حالا من الضمير فى (كالذين) لفساد المعنى وكون الضمير للفريقين فسواء حال من مجموع الموصول الثانى وضمير الأول، والمعنى على إنكار حسبان أن يستوى الفريقان بعد الممات فى الكرامة أو ترك المؤاخذه كما استويا ظاهرا فى الرزق والصحة فى الحياة ، وجوز أن يكون المعنى على إنكار حسبان جعل الحياتين مستويتين لأن المؤمنين على الطاعة وأولئك على المعاصى وكذلك الموتان لأنهم ملقون بالبشرى والرضوان وأولئك بالسوء والخذلان ، وقيل: به على تقدير كون الضمير المجترحين أيضا *

ولم يجوز المدقق الابدال من الكاف على تقدير اشتراك الضمير إذ المثل هو المشبه و (سواء) جار على المشبه والمشبه به*

وقرأ جمهور القراء (سواء محياهم ومماتهم) برفع سواء ومابعده على أن سواء خبر مقدم وما بعده مبتدأ لا العكس لأن سواء نكرة ولا مسوغ للابتداء بها والضمير للمجترحين ، والجملة قيل : بدل من المفعول الثانى لنجعل بدل كل من كل أو بدل اشتمال أو بدل بعض، وأيا ما كان ففيه إبدال الجملة من المفرد وقد أجازه أبو الفتح واختاره ابن مالك ، وأورد عليه شواهد ، قال أبو حيان: لا يتعين فيها البدل ، وقال محمد بن عبدالله الاشبيلى المعروف بابن العلج فى كتابه البسيط فى النحو: لا يصح أن تكون جملة معمولة للأول فى موضع البدل فان كانت غير معمولة فهل تكون جملة بدلا من جملة لا يبعد عندى جواز ذلك كالعطف والتأكيد اللفظى *

وظاهره أنه لا يجوز الإبدال ههنا ، وفى البحر يظهر لى أنه لا يجوز إبدال هذه الجملة من ذلك المفعول لأن الجعل بمعنى التصيير ولا يجوز صيرت زيدا أبوه قائم ولا صيرت زيدا غلامه منطلق لأن فى ذلك انتقالا من ذات إلى ذات أو من وصف فى الذات إلى وصف آخر فيها وليس فى تلك الجملة المقدرة مفعولا ثانيا انتقال مما ذكرنا وفيه بحث لا يخفى ، والزمخشرى قد نص على جعل الجملة بدلا من الكاف وهو إمام فى العربية ، لكن أفاد صاحب الكشف أنه أراد أنه بدل من حيث المعنى لا أنه بدل من ذلك لفظا قال : لأنه مفرد دال على الذات باعتبار المعنى وهذا دال على المعنى وإن كان الذات يلزم من طريق الضرورة إلا أن يقدر له موصوف محذوف بأن يقدر رجالا سواء محياهم ومماتهم مثلا ، والمعنى على البدلية كما سمعت فى قراءة النصب ، وجوز كون الجملة مفعولا ثانيا و (كالذين) حال من ضمير (نجعلهم) ولا يخفى عليك ما عليه وما له، وإذا كان الضمير للمؤمنين فالجملة قيل : حال من الموصول الثانى لا من الضمير فى المفعول الثانى للفساد ، وتعقب بأن فيه اكتفاء الاسمية الحالية بالضمير وهو غير فصيح على ما قيل : وقيل : استئناف يبين المقتضى للانكار على حسبان التماثل وهو ان المؤمنين سواء حالهم عندالله تعالى فى الدارين بهجة و كرامة فكيف يماثلهم المجترحون ، وجوز أن تكون بيانا لوجه الشبه المجمل، واذا كان الضمير للفريقين فالظاهر ان الجملة كلام مستأنف غير داخل فى حكم الانكار والتساوى حينئذ بين حال المؤمنين بالنسبة اليهم خاصة وحال المجترحين كذلك وتكون الجملة تعليلا للانكار فى المعنى دالا على عدم المماثلة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة لأن المؤمنين متساوو المحيا والممات فى الرحمة وأولئك متساوو المحيا والممات فى النقمة إذ المعنى كما يعيشون يموتون فلما افترق حال هؤلاء وحال هؤلاء حياة فكذلك

موتا ، وأما الابدال فقد علم حاله فتأمل *

وقرأ الأعمش (سواء) بالنصب (محياهم) ومماتهم به أيضا، وخرج الأول على ما سمعت ونصب محياهم ومماتهم على الظرفية لأنهما اسما زمان أومصدران أقيما مقام الزمان والعامل إما (سواء) أو (نجعلهم)، هذا والآية وإن كانت فى الكفار على ما نقل عن البحر وهو ظاهر ما روى عن الكلبي من أن عتبة . وشيبة . والوليد بن عتبة قالوا لعلي كرم الله تعالى وجهه . وحمزة رضي الله تعالى عنه . والمؤمنين: والله ما أنتم على شيء والئن كان ما تقولون حقا لحالنا أفضل من حالكم فى الآخرة كما هو أفضل فى الدنيا فنزلت الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الخ *

وهى متضمنة للرد عليهم على جميع أوجهها كما يعرف بأدنى تدبر يستنبط منها تباين حالى المؤمن العاصى والمؤمن الطائع ، ولهذا كان كثير من العباد يبكون عند تلاوتها حتى أنها تسمى مبكاة العابدين لذلك، فقد أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد . والطبرانى . وجماعة عن أبي الضحى قال: قرأ تميم الدارى سورة الجاثية فلما أتى على قوله تعالى (أم حسب الذين) الآية لم يزل يكررها ويبكى حتى أصبح وهو عند المقام *

وأخرج ابن أبى شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلى فمر بهذه الآية (أم حسب الذين) الخ فلم يزل يرددها حتى اصبح ، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه اذا قرأها: ليت شعرى من أى الفريقين أنت *

وقال ابن عطية: إن لفظها يعطى أن اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالايمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ويكون الايمان فى الفريقين ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها *

ورأيت كثيرا من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال: نحن يوم القيامة أفضل حالا من كثير من العابدين وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلال بعيد وغرور ماعليه مزيد

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١ ﴾ أى ساء حكمهم هذا وهو الحكم بالتساوى فما مصدرية والكلام اخبار عن قبح حكمهم المعهود *

ويجوز أن يكون لانشاء ذمهم على أن (ساء) بمعنى بئس فما فيه نكرة موصوفة وقعت تمييزا مفسراً لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أى بئس شيئا حكموا به ذلك ﴿ وَخَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ كأنه دليل على إنكار حسبانهم السابق أودليل على تساوى محيا كل فريق ومماته وبيان لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: (سواء محياهم ومماتهم) استئنافا وذلك من حيث أن خلق العالم بالحق المقتضى للعدل يستدعى انتصاف المظلوم من الظالم والتفاوت بين المسيء والمحسن وإذا لم يكن فى المحيا كان بعد الممات حتما ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عطف على (بالحق) لأنه فى معنى العلة سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملابسة ، أما على الأول فظاهر، وأما على الثانى فلأن المعنى خلقها ملتبسة ومقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل وحاصله خلقها لأجل ذلك أوعطف على علة محذوفة مثل ليدل سبحانه بها على قدرته أو ليعدل، وما موصولة أو مصدرية أى ليجزى كل نفس بالذى كسبته أو بكسبها ﴿ وَهُمْ ﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢ ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عذاب، والجملة فى موضع الحال، وتسمية ذلك ظلما مع أنه ليس كذلك لأنه منه سبحانه تصرف فى ملكه والظلم صرف فى ملك الغير بغير إذنه لأنه لو فعله غيره عز وجل كان ظلما

فالكلام على الاستعارة التمثيلية أو أنه لما كان مخالفا لوعده سبحانه الحق سماه تعالى ظلما *

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه يعبده فالكلام على التشبيه البليغ أو الاستعارة، والفاء للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة أى أنظرت من هذه حاله فرأيته فان ذلك مما يقضى منه العجب، وأبو حيان جعل أرأيت بمعنى أخبرنى وقال: المفعول الأول من (اتخذ) والثانى محذوف يقدر بعد الصلات أى أيهتدى بدليل «فمن يهديه» والآية نزلت على ما روى عن مقاتل فى الحرث بن قيس السهمى كان لايهوى شيئا إلا ركبه، وحكمها عام وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها، وعن ابن عباس «ما ذكر الله تعالى هوى إلا ذمه».

وقال وهب: إذا شككت فى خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته، وقال سهل التسترى: هواك داؤك فان خالفته فدواؤك، وفى الحديث «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى».

وقال أبو عمران موسى بن عمران الأشبيلى الزاهد:

فخالف هواها واعصها إن من يطع ... هوى نفسه ينزع به شر منزع
ومن يطع النفس اللجوجة ترده ... وترم به فى مصرع أى مصرع

وقد ذم ذلك جاهلية أيضا، ومنه قول عنترة:

أنى امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لاأتبع النفس اللجوج هواها

ولعل الأمر غنى عن تكثير النقل *

وقرأ الأعرج. وأبو جعفر (إلهة) بتاء التأنيث بدل هاء الضمير. وعن الأعرج أنه قرأ «آلهة» بصيغة الجمع *

قال ابن خالويه: كان أحدهم يستحسن حجرا فيعبده فاذا رأى أحسن منه رفضه مائلا اليه، فالظاهر أن آلهة بمعناها من غير تجوز أو تشبيه والهوى بمعنى المهوى مثله فى قوله: * هواى مع الركب اليمانين مصعد *

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أى خلقه ضالا أو خلق فيه الضلال أو خذله وصرفه عن اللطف على ما قيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل أى أضله الله تعالى عالما سبحانه بأنه أهل لذلك لفساد جوهر روحه *

ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى اضله عالما بطريق الهدى فهو كقوله تعالى: (فما اختلفوا الامن بعد ماجاءهم العلم) ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات *

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار والكلام على التمثيل، وقرأ عبد الله. والاعمش (غشاوة) بفتح الغين وهى لغة ربيعة، والحسن. وعكرمة. وعبد الله أيضا بضمها وهى لغة عكلية، وأبو حنيفة. وحمزة. والكسائى. وطلحة. ومسعود بن صالح. والاعمش أيضا (غشوة) بفتح الغين وسكون الشين، وابن مصرف. والاعمش أيضا كذلك الا أنهما كسرا الغين ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ أى من بعد اضلاله تعالى اياه، وقيل: المعنى فمن يهديه غير الله سبحانه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ أى ألا تلاحظون فلا تذكرون، وقرأ الجحدرى (تذكرون) بالتخفيف، والاعمش «تتذكرون» بتاءين على الاصل ﴿وَقَالُوا﴾ بيان لاحكام اضلالهم والختم على سمعهم وقلوبهم وجعل

غشاوة على أبصارهم فالضمير لمن باعتبار معناه أو للكفرة ﴿ مَاهِيَ ﴾ أى ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ التى نحن فيها، ويجوز أن يكون الضمير للحال والحياة الدنيا من جملة الاحوال فيكون المستثنى من جنس المستثنى منه أيضا لاستثناء حال الحياة الدنيا من أعم الاحوال ولا حاجة إلى تقدير حال مضافا بعد اداة الاستثناء أى ما الحال الاحال الحياة الدنيا ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير إلا أن تأخير نحيي فى النظم الجليل للفاصلة أى تموت طائفة وتحيا طائفة ولا حشر أصلا ، وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير أى نحيا ونموت وليس بذاك ، وقيل : أرادوا بالموت عدم الحياة السابق على نفخ الروح فيهم أى نكون نطفا وماقبلها ومابعدها ونحيا بعد ذلك ، وقيل : أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية مجازا كأنهم قالوا: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء اولادنا وذرارينا ، وقيل : أرادوا يموت بعضنا ويحيا بعض على أن التجوز فى الاسناد ، وجوز أن يريدوا بالحياة على سبيل المجاز اعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الاصنام ولا يخفى بعد ذلك ، وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (ونحيا) بضم النون ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أى طول الزمان فالدهر أخص من الزمان وهو الذى ارتضاه السعد ، ولهم فى ذلك كلام طويل، وقال الراغب : الدهر فى الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة ، وهو خلاف الزمان فانه يقع على المدة القليلة والكثيرة ، ودهر فلان مدة حياته ، ويقال: دهر فلانا نائبة دهرا أى نزلت به حكاه الخليل فالدهر ههنا مصدر *

وذكر بعض الأجلة أن الدهر بالمعنى السابق منقول من المصدر وانه يقال: دهره دهرا أى غلبه وإسنادهم الاهلاك إلى الدهر إنكار منهم لملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله عز وجل وكانوا يسندون الحوادث مطلقا اليه لجهلهم انها مقدرة من عند الله تعالى ، واشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر وهؤلاء معترفون بوجود الله تعالى فهم غير الدهرية فانهم مع إسنادهم الحوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا، والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثير، ولا يبعد أن يكون الزمان عندهم مقدار حركة الفلك كما ذهب اليه معظم الفلاسفة . وقد جاء النهى عن سب الدهر. أخرج مسلم «لا يسب أحدكم الدهر فان الله هو الدهر» وأبو داود . والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم قال الله عز وجل : «يؤذينى ابن آدم يقول ياخيبة الدهر فلا يقل أحدكم ياخيبة الدهر فانى أنا الدهر أقلب ليله ونهاره» والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم أيضا يقول الله عز وجل : «استقرضت عبدى فلم يقرضنى وشتمنى عبدى وهو لا يدرى يقول وادهراه وأنا الدهر» والبيهقى « لا تسبوا الدهر قال الله عز وجل : أنا الأيام والليالى أجددها وأبليها وآتى بملوك بعد ملوك» ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الآتى بالحوادث فاذا سببتم الدهر على أنه فاعل وقع السب على الله عز وجل *

وعد بعضهم سبه كبيرة لأنه يؤدى إلى سبه تعالى وهو كفر ، وما أدى اليه فأدنى مراتبه أن يكون كفرا (١) *

(١) قوله فأدنى مراتبه أن يكون كفرا كذا بالأصل ولعل الأولى أن يكون كبيرة

وكلام الشافعية صريح بأن ذلك مكروه لا حرام فضلا عن كونه كبيرة، والذى يتجه فى ذلك تفصيل وهو أن من سبه فان أراد به الزمن فلا كلام فى الكراهة ، أو الله عز وجل فلا كلام فى الكفر، ومثله إذا أراد المؤثر الحقيقى فانه ليس إلا الله سبحانه ؛ وإن أطلق فهذا محل التردد لاحتمال الكفر وغيره وظاهر كلامهم هنا أيضا الكراهة لأن المتبادر منه الزمن وإطلاقه على الله تعالى كما قال بعض الأجلة إنما هو بطريق التجوز *

ومن الناس من قال: إن سبه كبيرة ان اعتقد أن له تأثيرا فيما نزل به كما كان يعتقد جهلة العرب، وفيه نظر لأن اعتقاد ذلك كفر وليس الكلام فيه، وأنكر بعضهم كون مافى حديث أبى داود . والحاكم «فانى أنا الدهر» بضم الراء وقال: لو كان كذلك كان الدهر من أسمائه تعالى وكان يرويه «فانى أنا الدهر» بفتح الراء ظرفا لأقلب أى فانى أنا أقلب الليل والنهار الدهر أى على طول الزمان وممره، وفيه أن رواية مسلم فان الله هو الدهر تبطل مازعمه ، ومن ثم كان الجمهور على ضم الراء . ولا يلزم عليه أن يكون من أسمائه تعالى لما سبق أن ذلك على التجوز، وحكى الراغب عن بعضهم أن الدهر الثانى فى حديث مسلم غير الأول وأنه مصدر بمعنى الفاعل، والمعنى أن الله تعالى هو الدهر أى المصرف المدبر المفيض لما يحدث ، وفيه بعد *

وقرأ عبدالله (الا دهر) وتأويله الادهر يمر ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ ﴾ أى بما ذكر من قصر الحياة على مافى الدنيا ونسبة الاهلاك إلى الدهر ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مستند إلى عقل أو نقل ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ ﴾ ماهم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم ما يصح أن يتمسك به فى الجملة ، هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ الناطقة بالحق الذى من جملته البعث ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على ما نطقت به مما يخالف معتقدهم أو مبينات له ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى :

﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٥ ﴾ أى فى أنا نبعث بعد الموت أى ما كان متمسكا لهم شىء من الأشياء إلا هذا القول الباطل الذى يستحيل أن يكون حجة ، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو أنه من قبيل * تحية بينهم ضرب وجيع * أى ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفى أن يكون لهم حجة فانه لا يلزم من عدم حصول الشىء حالا كاعادة آبائهم التى طلبوها فى الدنيا امتناعه بعد لتمتنع الاعادة إذا قامت القيامة، والخطاب فى (ائتوا . وكنتم) للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إذ هم قائلون بمقالته صلى الله تعالى عليه وسلم من البعث طالبون من الكفرة الاقرار به ، وجوز أن يكون له عليه الصلاة والسلام وللانبياء عليهم السلام الجائين بالبعث وغلب الخطاب على الغيبة *

وقال ابن عطية : (ائتوا . وكنتم) من حيث المخاطبة له صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد هو وإلهه والملك الذى يذكر عليه الصلاة والسلام نزوله عليه بذلك وهو جبريل عليه السلام ، وهو كما ترى *

وقرأ الحسن . وعمرو بن عبيد . وابن عامر فيما روى عنه عبدالحميد . وعاصم فيما روى هرون . وحسين عن أبى بكر عنه (حجتهم) بالرفع على أنه اسم كان وما بعد خبر أى ما كان حجتهم شيئا من الأشياء إلا هذا القول الباطل، وجواب (إذا) ما كان الخ ، ولم تقترن بالفاء وإن كانت لازمة فى المنفى بما إذا وقعت جواب الشرط لأنها غير جازمة ولا أصلية فى الشرطية، وهو سر قول أبى حيان : إن إذا خالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان

منفيا بما لم تدخل الفاء بخلاف أدوات الشرط فلا بد معها من الفاء نحو إن تزرنا فما جفوتنا فلا حاجة إلى تقدير جواب لها كعمدوا إلى الحجج الباطلة خلافا لابن هشام . واستدل بوقوع ما ذكر جوابا على أن العمل فى إذا ليس للجواب لصدارة ما المانعة منه ولا قائل بالفرق، ولعل من قال بالعمل يقول يتوسع فى الظرف مالم يتوسع فى غيره ، ثم ان المعنى على الاستقبال لمكان (إذا) أى ماتكون حجتهم إلا أن يقولوا ذلك *

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى فيه وجوز كون الفعل مضمنا معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه ومعنى فى أظهر أى يجمعكم فى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى فى جمعكم فان من قدر على البدء قدر على الاعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لامحالة فى ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها ، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لامحالة واقع والاتيان بالآباء حيث كان منافيا للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٦﴾ استدراك من قوله تعالى: «لا ريب فيه» وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم فى النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيان للاختصاص المطلق والتصرف الكلى فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل اثر بيان تصرفه تعالى بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة فهو تعميم للقدرة بعد تخصيص *

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ٢٧﴾ قال الزمخشرى: العامل فى (يوم تقوم) يخسر ويومئذ بدل من يوم تقوم وحكاه ابن عطية عن جماعة، وتقديم الظرف على الفعل للحصر لأن كل خسران عند الخسران فى ذلك اليوم كلا خسران، وفيه أيضا رعاية الفواصل على ماقيل، وتعقب حديث الابدال بأن التنوين فى (يومئذ) عوض عن الجملة المضاف اليها ، والظاهر أنها تقدر بقرينة ما قبل (تقوم الساعة) فيقال ويوم تقوم الساعة يوم إذ تقوم الساعة يخسر المبطلون فيكون تأكيدا لا بدلا إذ لا وجه له، ولذا قيل: إنه بالتأكيد اشبه، وقول أبى حيان: إن كان بدلا توكيديا وهو قليل جاز والافلا لايسمن ولا يغنى، وتكلف بعضهم فزعم أن اليوم الثانى بمعنى الوقت الذى هو جزء من يوم قيام الساعة فهو بدل بعض معه عائد مقدر ولما كان فيه ظهور خسرانهم كان هو المقصود بالنسبة، وقالت فرقة: العامل فى (يوم تقوم) مايدل عليه الملك قالوا: وذلك أن يوم القيامة أمر ثالث ليس بالسماء ولا بالارض لتبدلهما فكأنه قيل . ولله ملك السموات والارض والملك يوم تقوم الساعة، و(يومئذ) منصوب بيخسر والجملة استئناف وإن كان لها تعلق بماقبلها من جهة تنوين العوض، وقيل: يجوز أن يكون عطفا على ظرف معمول للملك المذكور كأنه قيل: لله ملك السموات والارض اليوم ويوم تقوم الساعة وهو كما ترى، و(المبطلون) الداخلون فى الباطل، ولعل المراد به اعظم انواعه وهو الكفر ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الامم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة على الركب مستوفزة وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر لما يكره، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة، وعن قتادة جماعات من الجثوة مثلثة الجيم وهى الجماعة تجتمع على جثى أى تراب مجتمع ، وعن مؤرج السدوسى جاثية خاضعة بلغة قريش، والخطاب فى (ترى) لمن يصح منه الرؤية اولسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام وهى

بصرية، و (جاثية) حال وجوز أن تكون صفة ولو كانت علمية كانت مفعولا ثانيا، وقرىء (جاذية) بالذال والجذو اشد استيفازا من الجثو لأن الجاذي هو الذي يجلس على اطراف اصابعه، وجوز أن يكون الجاذي بمعنى الجاثي أبدلت ثاؤه ذالا فان الثاء والذال متقارضان كما قيل شحاث وشحاذ ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحفظة لتحاسب، وأفرد على ارادة الجنس والا فلكل واحد من كل أمة صحيفة فيها أعماله، وقيل: المراد كتاب نبيها تدعى اليه لينظر هل عملت به أولا وحكى ذلك عن يحيى بن سلام الا أنه حمل كل أمة على كل أمة كافرة والظاهر العموم، وقيل: المراد بذلك اللوح المحفوظ أي تدعى إلى ماسبق لها فيه، وقرأ يعقوب (كل) بالنصب وخرج على أنه بدل من كل الاول، وجملة (تدعى) صفة، وابدال الامة المدعوة إلى كتابها من الامة الجاثية حسن وجاء ذلك من الوصف، ويقال مثل ذلك فيما إذا كان الجملة حالا، وإذا كانت الرؤية علمية وجملة (تدعى) مفعولا ثانيا فالظاهر أنه تأكيد، وجعله تأكيدا مع كون الجملة صفة فيه تخلل التأكيد بين الوصفين وهو كما في الكشف غير مستحسن ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨ ﴾ مقول قول مقدر هو حال أو خبر بعد خبر ٭

وفي الكلام مضاف مقدر أي جزاء ما كنتم الخ أو هو من المجاز، وقوله تعالى: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ إلى آخره من تمام مايقال حينئذ، والاشارة إلى الكتاب التي تدعى اليه الامة المقول لها ذلك، وهو إذا كان صحيفة الاعمال فاضافته إلى ضميره جل شانه لأدنى ملابسة على التجوز في النسبة الاضافية فانه تعالى الذي أمر الكتبة أن يكتبوا فيه أعمالهم، وإن كان الكتاب المنزل على نبي تلك الامة أو اللوح المحفوظ فامر الاضافة ظاهر، وضمير العظمة على سائر الاوجه لتفخيم شأن الكتاب، وجوز أن يكون الضمير للكتبة والاضافة فيه حقيقية قيل: ويأباه (نستنسخ) إلا أن يجعل بمعنى ننسخ ونكتب وستعلم إن شاء الله تعالى مافيه، والاظهر عندي حمل الكتاب في الموضعين على صحيفة الاعمال واسم الاشارة مبتدأ وما بعده خبر، وقوله سبحانه ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يشهد عليكم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال أو مستأنف، و (بالحق) حال من فاعل (ينطق) وقوله تعالى: ﴿ انَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ﴾ إلى آخره تعليل لنطقه عليهم باعمالهم من غير اخلال بشيء منها أي إنا كنا فيما قبل نستنسخ الملائكة أي نجعلها تنسخ وتكتب ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩ ﴾ في الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة، وحقيقة النسخ كتابة من أصل ينظر فيه فكان أفعال العباد هي الاصل على مافي البحر، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن الله تعالى خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال: اكتب قال: ماأكتب؟ قال: اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر ورزق مقسوم حلال أو حرام ثم الزم كل شيء من ذلك بيانه دخوله في الدنيا متى ومقامه فيها كم وخروجه منها كيف ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزانا فالحفظة يستنسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم فاذا فني الرزق وانقطع الامر وانقضى الاجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فتقول الخزنة مانجد لصاحبكم عندنا شيئا فترجع فيجدونه قدمات ثم قال ابن عباس ألستم قوما عربا تسمعون الحفظة يقولون ان كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وهل يكون الاستنساخ الامن أصل؟ وفي رواية ابن المنذر. وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن الآية فذكر نحو ماسمعت ثم قال: هل يستنسخ الشيء الامن كتاب، وكون الاستنساخ من اللوح قد رواه جماعة عنه، وماذكرناه يصحح أن يكون هذا القول من الملائكة بدون تأويل «نستنسخ» بننسخ

كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ إلى آخره تفصيل للمجمل المفهوم من قوله تعالى: «ينطق عليكم بالحق» أو يجزون من الوعد والوعيد، والمراد بالرحمة الجنة مجازا والظرفية على ظاهرها، وقيل: المراد بالرحمة ما يشمل الجنة وغيرها والأول أظهر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من الادخال فى رحمته تعالى: ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ٣٠ ﴾ الظاهر كونه فوزاً لافوز وراءه •

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم بطريق التقريع والتوبيخ: ألم تكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم فجواب أما القول المقدر، وحذف اكتفاء بالمقصود وهو المقول وحذفه كثير مقيس حتى قيل هو البحر حدث عنه، وحذف المعطوف عليه لقرينة الفاء العاطفة وأن تلاوة الآيات تستلزم اتيان الرسل معنى. وهذا على ماذهب اليه الزمخشرى والجمهور على أن الهمزة مقدمة من تأخير لصدارتها والفاء على نية التقديم، والتقدير فيقال لهم: ألم تكن الخ فليس هناك سوى حذف القول، وفى الكشف لو حمل على أن المحذوف فيوبخون لدلالة مابعده عليه، وفائدة هذا الاسلوب مع أن الاصل فيدخلهم فى عذابه الدلالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرون بعد فى الموقف معذبون بالتوبيخ لكان وجها ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الايمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ٣١ ﴾ قوما عادتهم الاجرام ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أى وماوعده سبحانه من الامور الآتية أو وعده تعالى بذلك ﴿ حَقٌّ ﴾ أى كائن هو أو متعلقه لامحالة ففى الكلام تجوز اما فى الطرف أو فى النسبة •

وقرأ الاعرج. وعمرو بن فائد «وإذا قيل أن» بفتح الهمزة على لغة سليم ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ برفع «الساعة» فى قراءة الجمهور على العطف على محل إن واسمها على ماذهب اليه أبو على وتبعه الزمخشرى، ومن زعم أن لاسم إن موضعا جوز العطف عليه هنا، وزعم أبو حيان أن الصحيح أنه لايجوز كلا الوجهين وعليه فجملة «الساعة لاريب فيها» عطف على الجملة السابقة، وقرأ حمزة (والساعة) بالنصب عطفا على اسم أن وروى ذلك عن الاعمش. وأبى عمرو. وأبى حيوة. وعيسى. والعبسى. والمفضل، وذكر أمر الساعة وانها لاريب فى وقوعها مع أنها من جملة ما وعد الله تعالى اعتناء بامر البعث المقصود بالمقام ﴿ قُلْتُم ﴾ لغاية عتوكم: ﴿ مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ أى أى شىء هى استغرابا لها جدا كما يؤذن به جمع (ماندرى) مع الاستفهام •

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ استشكل ذلك لما أنه استثناء مفرغ وقد قالوا: لايجوز تفريغ العامل إلى المفعول المطلق المؤكد فلا يقال: ماضربت الاضربا لأنه بمنزلة ماضربت الاضربت، وقال الرضى: إن الاستثناء المفرغ يجب أن يستثنى من متعدد مقدر معرب باعراب المستثنى مستغرق لذلك الجنس حتى يدخل فيه المستثنى بيقين ثم يخرج بالاستثناء وليس مصدر نظن محتملا مع الظن غيره حتى يخرج الظن منه، وكذا يقال فى ماضربت الاضربا ونحوه وهذا مراد من قال: إنه من قبيل استثناء الشىء من نفسه. واختلفوا فى حله فقيل: إن معنى مانظن مانفعل الظن كما فى نحو قيم وقعد وحينئذ يصح الاستثناء ويتغاير مورد النفى والايجاب من حيث التقدير والتجوز فى الاستثناء من العام المقدر وجعل «نظن» فى معنى نفعل الفعل لا نفعل الظن كأنه قيل: مانفعل فعلا الا الظن، وكذا يقال فى أمثاله ومنها قوله الاعشى:

وحل به الشيب اثقاله ... وما اغتره الشيب الا اغترارا

وارتضاه صاحب الكشف، وقيل: مانظن بتاويل مانعتقد ويكون (ظنا) مفعولا به أي ما نعتقد شيئا الاظنا، وارتضاه أبو حيان. وتعقب بان ظاهر حالهم أنهم مترددون لا معتقدون. وأجيب بان الاعتقاد المنفي لا ينافي ظاهر حالهم بل يقررها على أتم وجه، وقيل المستثنى ظن أمر الساعة والمستثنى منه مطلق الظن كأنه قيل لاظن ولا تردد لنا الا ظن أمر الساعة والتردد فيه فالكلام لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة، وقال الرضي: إن ما ضربت الا ضربا يحتمل التعدد من حيث توهم المخاطب اذ ربما تقول ضربت وقد فعلت غير الضرب مما يجرى مجراه من مقدماته كالتهديد فتدفع ذلك وتقول ضربت ضربا فهو نظير جاء زيد زيد فلما كان ضربت محتملا للضرب وغيره من حيث التوهم صار كالمتعدد الشامل للضرب وغيره، وحاصله أن الضرب لما أحتمل قبل التأكيد والاستثناء فعلا آخر حمل على العموم بقرينة الاستثناء فيكون المعنى مافعلت شيئا الا ضربا، وهكذا (ما نظن الا ظنا) وهذا كالمتحد مع ماذكرناه أولا. ورد بان الاستثناء يقتضي الشمول المحقق ولا يكفي فيه الاحتمال المحقق فضلا عن المتوهم *

وتعقب بانه ليس بشيء لأنه إذا تجرد الفعل لمعنى عام صار الشمول محققا على أن عدم كفاية الشمول الفرضي غير مسلم كما يعرفه من يتتبع موارده، وذهب ابن يعيش. وأبو البقاء الى أنه على القلب والتقديم والتأخير والاصل إن نحن الا نظن ظنا وحكى ذلك عن المبرد، وقد حمل عليه ما حكاه أبو عمرو بن العلاء. وسيبويه من قول العرب: ليس الطيب الا المسك بالرفع فقال: الاصل ليس الا الطيب المسك ليكون اسم ليس ضمير الشان وما بعد الا مبتدأ وخبرا في موضع الخبر لها، ورده الرضي وقال: إنه تكلف لما فيه من التعقيد المخل بالفصاحة *

والمثال المحكي وارد على لغة بني تميم فانهم عاملوا ليس معاملة ما فاهملوها لانتقاض النفي بالا، وقيل (ظنا) مفعول مطلق لفعل محذوف والمستثنى محذوف والتقدير إن نظن الا أنكم تظنون ظنا *

وحكى عن المبرد أيضا وفيه حذف إن واسمها وخبرها وابقاء المصدر وذلك لا يجوز، وفيه أيضا من التعقيد المخل بالفصاحة ما فيه، ولا أظن صحة حكايته عن المبرد لغاية برودته، وجوز صاحب التقريب أن يكون المراد إن نظن الا ظنا ضعيفا فهو مصدر مبين للنوع حذفت صفته كما صرح به في البحر لا مؤكد، وهذا يوافق ماذكره الامام السكاكي في بحث أن التنكير قد يكون للتحقير. وتعقب بان قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ يأباه فان مقابل الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه، وقد صرح غير واحد بان هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها والمراد بها استمرار النفي وتأكيده، قيل: والمعنى وما نحن بمستيقنين امكان الساعة أي لا نتيقن امكانها أصلا فضلا عن تحقق وقوعها المدلول عليه بقوله تعالى: (ان وعد الله حق والساعة لاريب فيها) فقولهم ذلك رد لهذا، ولعل المثبتين لأنفسهم الظن من غير ايقان بامر الساعة غير القائلين ان هي الا حياتنا الدنيا فان ذلك ظاهر في أنهم منكرون للبعث جازمون بنفي الساعة فيكون الكفرة صنفين صنف جازمون بنفيها كائمتهم وصنف مترددون متحيرون فيها فاذا سمعوا ما يؤثر عن آبائهم أنكروها وإذا سمعوا الآيات المتلوة تقهقر انكارهم فترددوا *

ويحتمل اتحاد قائل ذاك وقائل هذا إلا أن كل قول في وقت وحال فهو مضطرب مختلف الحالات تارة يجزم بالنفي فيقول: إن هي الا حياتنا الدنيا وأخرى يظن فيقول ان نظن الا ظنا، وقيل: الجزم هناك بنفي وقوعها والظن من غير ايقان هنا بمجرد امكانها فهم مترددون بامكانها الذاتي جازمون بعدم وقوعها بالفعل فتأمل *

﴿ تم الجزء الخامس والعشرون ويليه ان شاء الله تعالى الجزء السادس والعشرون وأوله (وبدا لهم) ﴾

سورة الجاثية

مكيّة كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية، هي: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾[1] نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ ذكره الماورديُّ، وقال المهدويّ والنحاس عن ابن عباس: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة، فأراد أن يبطش به، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِين آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيّامَ اللَّهِ﴾ ثم نسخت بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[2]. فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية. وقيل ست.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿حمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ و ﴿تَنْزِيلُ﴾ خبره. وقال بعضهم: ﴿حمٓ﴾ اسم السورة. و ﴿تنزيل الكتاب﴾ مبتدأ. وخبره ﴿مِن اللَّهِ﴾. والكتاب القرآن. و ﴿العزيز﴾ المنيع. ﴿الحكيم﴾ في فعله. وقد تقدّم جميع هذا[3].

[٣] ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾.

---

(١) آية ١٤. (٢) آية ٥ سورة التوبة. (٣) راجع ١/ ٢٨٧ و ٢/ ١٣١ طبعة ثانية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي في خلقهما ﴿لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ يعني المطر. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدّم جميعه مستوفًى في ﴿البقرة﴾ وغيرها[1]. وقراءة العامة ﴿وما يَبُثُّ مِن دَابةٍ آياتٌ﴾ ﴿وتَصريف الرِّياحِ آياتٌ﴾ بالرفع فيهما. وقرأ حمزة والكسائي بكسر التاء فيهما. ولا خلاف في الأوّل أنه بالنصب على اسم ﴿إنّ﴾ وخبرها ﴿في السموات﴾. ووجه الكسر في ﴿آيات﴾ الثاني العطف على ما عملت فيه؛ التقدير: وإن في خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ. فأما الثالث فقيل: إن وجه النصب فيه تكرير ﴿آيات﴾ لما طال الكلام؛ كما تقول: ضربت زيداً زيداً. وقيل: إنه على الحمل على ما عملت فيه ﴿إنّ﴾ على تقدير حذف ﴿في﴾؛ التقدير: وفي اختلاف الليل والنهار آيات. فحذفت ﴿في﴾ لتقدّم ذكرها. وأنشد سيبويه في الحذف:

أَكُلَّ امرىءٍ تَحْسِبِين امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا[2]

فحذف ﴿كل﴾ المضاف إلى نارٍ المجرورة لتقدّم ذكرها. وقيل: هو من باب العطف على عاملين. ولم يجزه سيبويه، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين؛ فعطف ﴿اختلاف﴾ على قوله: ﴿وفي خلقكم﴾ ثم قال: ﴿وتصريف الرياح آيات﴾ فيحتاج إلى العطف على عاملين، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعاً ناصباً في حال. وأما قراءة الرفع فحملاً على موضع ﴿إن﴾ مع ما عملت فيه. وقد ألزم النحويون في ذلك أيضاً العطف على عاملين؛ لأنه عَطَف على ﴿واختلاف﴾ على ﴿وفي خلقكم﴾، وعطف ﴿آيات﴾ على موضع ﴿آيات﴾ الأوّل، ولكنه يقدّر على تكرير ﴿في﴾. ويجوز أن يرفع

---

(١) راجع ٢/١٩١ وما بعدها. و ١٤/٥٨.

(٢) البيت لأبي دؤاد الأيادي.

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة. وحكى الفراء رفع ﴿اختلاف﴾ و ﴿آيات﴾ جميعاً، وجعل الاختلاف هو الآيات.

[٦] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلك آياتُ اللَّهِ﴾ أي هذه آيات الله؛ أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه. وقرىء ﴿يتلوها﴾ بالياء. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ وقيل بعد قرآنه ﴿وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر. وقرأ ابن مُحَيْصِن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿تؤمنون﴾ بالتاء على الخطاب.

[٧] ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾.

[٨] ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿ويلٌ﴾ وادٍ في جهنم. توعّد من ترك الاستدلال بآياته. والأفّاك: الكذاب. والإفك الكذب. ﴿أثيم﴾ أي مرتكب للإثم. والمراد فيما رُوي النضرُ بن الحارث. وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة. وحكى الثعلبي أنه أبو جهل وأصحابه. ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ يعني آيات القرآن. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً﴾ أي يتمادى على كفره متعظماً في نفسه عن الانقياد؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدّها. قال معناه ابن عباس وغيره. وقيل: أصله من إصرار الحمار على العانة[١]، وهو أن ينحني عليها صارًا أذنيه. و ﴿أنْ﴾ من ﴿كأنْ﴾ مخففة من الثقيلة؛ كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن؛ كما في قوله:

كـأنْ ظَبْيـة تَعطُـو إلـى نـاضـر السَّلَـمْ[٢]

---

(١) العانة: الأتان (الحمارة).

(٢) ويروى: إلى وارق السلم. وهذا عجز بيت لابن صريم اليشكري. وصدره كما في كتاب سيبويه و «المقاصد النحوية»:

ويـومـاً تـوافينـا بـوجـه مقسـم

والمقسم: المحسن. و «تعطو»: تتناول. و «السلم»: شجر بعينه. وصف امرأة حسنة الوجه فشبهها بظبية مخصبة المرعى.

ومحل الجملة النصب؛ أي يصرّ مثل غير السامع. وقد تقدّم في أوّل ﴿لقمان﴾ القول في معنى هذه الآية[١]. وتقدّم معنى ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في ﴿البقرة﴾[٢].

[٩] ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

[١٠] ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً ٱتَّخَذَهَا هُزُواً ﴾ نحو قوله في الزقوم: إنه الزبد والتمر، وقوله في خزنة جهنم: إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدي. ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذلٌ مُخزٍ. ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق جهنمُ. وقال ابن عباس: ﴿من ورائهم جهنم﴾ أي أمامهم؛ نظيره ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءِ صَدِيدٍ ﴾[٣] أي من أمامه. قال:

أليس ورائي إن تراخت منيّتي أدبّ مع الولدان أزْحَفُ كالنَّسْر

﴿وَلاَ يُغْنِي عَنهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ أي من المال والولد؛ نظيره ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شيئاً﴾[٤] أي من المال والولد. ﴿وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني الأصنام. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي دائم مؤلم.

[١١] ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر؛ يعني القرآن. وقال ابن عباس: يعني كل ما جاء به محمد ﷺ. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي جحدوا دلائله.

(١) راجع ١٤/٥٧.
(٢) راجع ١/١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٣) آية ١٦ سورة إبراهيم.
(٤) آية ١٠ سورة آل عمران.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز العذاب؛ أي لهم عذاب من عذاب أليم؛ دليله قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السماءِ﴾[١] أي عذاباً. وقيل: الرجز القذر مثل الرجس؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاء صَدِيدٍ﴾[٢] أي لهم عذاب من تجرّع الشراب القذِر. وضم الراء من الرجز ابن مُحَيْصِن حيث وقع. وقرأ ابن كَثِير وابن محيصِن وحفص ﴿اليم﴾ بالرفع؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز. الباقون بالخفض نعتاً للرجز.

[١٢] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسانٌ منه وإنعام. وقرأ ابن عباس والجَحْدَرِيّ وغيرهما ﴿جميعاً مِنّةً﴾ بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوباً على المصدر. قال أبو عمرو: وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها ﴿مِنّةً﴾ أي تفضلاً وكرماً. وعن مسلمة بن محارب أيضاً ﴿جميعاً مَنُّهُ﴾ على إضافة المَنّ إلى هاء الكناية. وهو عند أبي حاتم خبر ابتداء محذوف؛ أي ذلك، أو هو مَنُّه. وقراءة الجماعة ظاهرة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[١٤] ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ جزم على جواب ﴿قل﴾ تشبيهاً بالشرط والجزاء؛ كقولك: قم تُصِب خيراً. وقيل: هو على حذف اللام. وقيل: على معنى قل

---

(١) آية ٥٩ سورة البقرة. (٢) آية ١٦ سورة إبراهيم.

لهم اغفروا يغفروا؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ. ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به. قال ابن العربيّ: وهذا لم يصح. وذكر الواحديّ والقشيريّ وغيرهما عن ابن عباس أن الآية نزلت في عمر مع عبد الله بن أُبَيّ في غَزْوة بني المُصْطَلِق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها المُرَيْسِيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قِرب النبيّ ﷺ وقِرب أبي بكر، وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكلك. فبلغ عمرَ رضي الله عنه قولُه، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله؛ فأنزل الله هذه الآية. هذه رواية عطاء عن ابن عباس. وروي عن ميمون بن مِهران قال: لما نزلت ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[1] قال يهوديّ بالمدينة يقال له فِنْحاص: احتاج ربّ محمد! قال: فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه؛ فجاء جبريل عليه السلام إلى النبيّ ﷺ فقال: «إن ربّك يقول لك ﴿قُلْ لِلذِين آمنوا يَغْفِرُوا لِلذِين لا يَرْجُون أيّامَ اللَّهِ﴾. وأعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودي»، فبعث رسول الله ﷺ في طلبه، فلما جاء قال: «يا عمر، ضع سيفك» قال: يا رسول الله، صدقت، أشهد إنك أرسلت بالحق. قال: «فإن ربك يقول ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾» قال: لا جرم! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي.

قلت: وما ذكره المهدويّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عباس، وهو قول القُرَظيّ والسُّدّي وعليه يتوجه النسخ في الآية. وعلى أن الآية نزلت بالمدينة أو في غزوة بني المُصْطَلِق فليست بمنسوخة. ومعنى ﴿يغفروا﴾: يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى ﴿لا يرجون أيام الله﴾: أي لا يرجون ثوابه. وقيل: أي لا يخافون بأس الله ونقمه. وقيل: الرجاء بمعنى الخوف؛ كقوله: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾[2] أي لا تخافون له عظمة. والمعنى: لا تخشون

---

(١) آية ٢٤٥ سورة البقرة. (٢) آية ١٣ سورة نوح.

مثل عذاب الأمم الخالية. والأيام يعبّر بها عن الوقائع. وقيل: لا يأمُلون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه. وقيل: المعنى لا يخافون البعث. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قراءة العامة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بالياء على معنى ليجزي الله. وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿لنجزي﴾ بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة ﴿لِيُجْزَى﴾ بياء مضمومة وفتح الزاي على الفعل المجهول، ﴿قوما﴾ بالنصب. قال أبو عمرو: وهذا لحن ظاهر. وقال الكسائيّ: معناه ليجزي الجزاءُ قوماً، نظيره ﴿وَكَذلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة ﴿الأنبياء﴾[1]. قال الشاعر:

ولو وَلَدتْ قُفَيْرَةُ جَرْو كَلْبٍ لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا[2]

أي لَسُبَّ السَّبُّ.

[١٥] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

تقدّم[3].

[١٦] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة. ﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الحكم: الفهم في الكتاب. وقيل: الحكم على الناس والقضاء. ﴿والنبوّة﴾ يعني الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلال

(١) راجع ١١/ ٣٣٤.
(٢) قائله جرير يهجو الفرزدق. وقفيرة (كجهينة): أم الفرزدق.
(٣) راجع ١٥/ ٣٧٠.

من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المَنّ والسَّلْوَى في التِّيه. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالِمَي زمانهم؛ على ما تقدّم في ﴿الدخان﴾[1] بيانه. ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ قال ابن عباس: يعني أمر النبيّ ﷺ، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب، وينصره أهل يثرب. وقيل: بيّنات الأمرِ شرائعُ واضحات في الحلال والحرام ومعجزات. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ يريد يُوشَع بن نُون؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم؛ حكاه النقاش. وقيل: ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ نبوة النبيّ ﷺ فاختلفوا فيها. ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً على النبيّ ﷺ؛ قال معناه الضحاك. وقيل: معنى ﴿بَغْياً﴾ أي بغي بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البينات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي يحكم ويفصِل. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

[١٨] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأمرِ ﴾ الشريعة في اللغة: المذهب والمِلة. ويقال لمشرعة الماء ـ وهي مورد الشاربة ـ: شريعة. ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد. فالشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين؛ والجمع الشرائع. والشرائع في الدين: المذاهب التي شرعها الله لخلقه. فمعنى ﴿ جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق. وقال ابن عباس: ﴿ على شريعة ﴾ أي على هدًى من الأمر. قتادة: الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض. مقاتل: البينة؛ لأنها

(١) راجع ١٦/١٤٢.

طريق إلى الحق. الكلبي: السُّنة؛ لأنه يُستن بطريق مَن قبله من الأنبياء. ابن زيد: الدِّين؛ لأنه طريق النجاة. قال ابن العربي: والأمر يرِد في اللغة بمعنيين: **أحدهما** ـ بمعنى الشأن كقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[١]. **والثاني** ـ أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي. وكلاهما يصح أن يكون مراداً هاهنا؛ وتقديره: ثم جعلناك على طريقة من الدِّين وهي مِلّة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه.

الثانية ـ قال ابن العربي: ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبيّ ﷺ وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبيّ ﷺ عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني المشركين. وقال ابن عباس: قُريظة والنَّضِير. وعنه: نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه.

[١٩] ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب. قال ابن عباس: يريد أن المنافقين أولياء اليهود. ﴿واللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ناصرهم ومعينهم. والمتقون هنا: الذين اتقوا الشرك والمعاصي.

---

(١) آية ٩٧ سورة هود.
(٢) آية ١٢٣ سورة النحل.

[٢٠] ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ ابتداء وخبر؛ أي هذا الذي أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام. وقرىء ﴿هذه بصائر﴾ أي هذه الآيات. ﴿وَهُدًى﴾ أي رشد وطريق يؤدّي إلى الجنة لمن أخذ به. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ في الآخرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

[٢١] ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي اكتسبوها. والاجتراح: الاكتساب؛ ومنه الجوارح، وقد تقدّم في المائدة[١]. ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ﴾ قال الكلبي: ﴿الذين اجترحوا﴾ عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليد بن عُتبة. و ﴿الذين آمنوا﴾ عليّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنهم ـ حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم. وقيل: نزلت في قوم من المشركين قالوا: إنهم يعطون في الآخرة خيراً مما يعطاه المؤمن؛ كما أخبر الرب عنهم في قوله: ﴿ولئن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾[٢]. وقوله: ﴿أم حسب﴾ استفهام معطوف معناه الإنكار. وأهل العربية يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطاً للخطاب. وقوم يقولون: فيه إضمار ؛ أي والله وليّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّي بينهم. وقيل: هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. وقراءة العامة ﴿سواءٌ﴾ بالرفع على أنه خبر ابتداء مقدّم، أي محياهم ومماتهم سواء. والضمير في ﴿محياهم ومماتهم﴾ يعود على الكفار ، أي محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ﴿سواء﴾ بالنصب، واختاره أبو عبيد قال: معناه

(١) راجع ٦/٦٦.
(٢) آية ٥٠ سورة فصلت.

نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضاً وعيسى بن عمر ﴿ومماتهم﴾ بالنصب؛ على معنى سواء في محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب. ويجوز أن يكون ﴿محياهم ومماتهم﴾ بدلاً من الهاء والميم في نجعلهم؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتِهم. ويجوز أن يكون الضمير في ﴿محياهم ومماتهم﴾ للكفار والمؤمنين جميعاً. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً. وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي الضحا عن مسروق قال قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكي ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية كلها. وقال بشير: بتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمرّ بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيراً ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أوّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة.

[٢٢] ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ أي بالأمر الحق. ﴿وَلِتُجْزَى﴾ أي ولكي تجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في الآخرة. ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

[٢٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهْوَى شيئاً إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن

شيئاً وَهوِيهَ اتخذه إلٰهاً. قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه. وقال سفيان بن عيينة: إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة. وقيل: المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبودِه تعجيباً لذوي العقول من هذا الجهل. وقال الحسن بن الفضل: في هذه الآية تقديم وتأخير؛ مجازه: أفرأيت من اتخذ هواه إلٰهه. وقال الشَّعْبِيّ: إنما سُمِّي الهوى [هَوًى] لأنه يهوي بصاحبه في النار. وقال ابن عباس: ما ذكر الله هَوًى في القرآن إلا ذمّه؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ[3] ٱللَّهُ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللَّهِ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[5]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وقال أبو أمامة سمعت النبيّ ﷺ يقول: «ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى». وقال شدّاد بن أوس عن النبيّ ﷺ: «الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله». وقال عليه السلام: «إذا رأيت شُحاً مطاعاً وهوًى مُتَّبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة». وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شُحٌّ مطاع وهوًى متبع وإعجاب المرء بنفسه. والمنجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب». وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه؛ فإن كان عمله

---

(١) آية ١٧٦ سورة الأعراف.

(٢) آية ٢٨ سورة الكهف.

(٣) آية ٢٩ سورة الروم.

(٤) آية ٥٠ سورة القصص.

(٥) آية ٢٦ سورة صٓ.

تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح. وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول:

إن الهوان هو الهوى قلب أسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هَوَانٌ سرقت نونه؛ فأخذه شاعر فنظمه وقال:

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ فإذا هَوِيت فقد لقيت هوانا

وقال آخر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد كَسَبت هوانا
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى فأخضع لحبّك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك:

ومن البلايا للبلاء علامة ألا يُرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحرّ يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد:

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة وكان إليها للخلاف طريق
فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطُوسيّ:

والنفس إن أعطيتها مناها فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحَوَارَى : مررت براهب فوجدته نحيفاً فقلت له: أنت عليل . قال نعم . قلت مذكم ؟ قال : مذ عرفت نفسي ! قلت فتداوى؟ قال : قد أعياني الدواء ، وقد عزمت على الكَيّ . قلت وما الكي ؟ قال مخالفة الهوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هواك داؤك ؛ فإن خالفته فدواؤك. وقال وهب : إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته.

وللعلماء في هذا الباب في ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي على علم قد علمه منه. وقيل: أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقّه. وقال ابن عباس: أي على علم قد سبق عنده أنه سيضل. مقاتل: على علم منه أنه ضال؛ والمعنى متقارب. وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر. ثم قيل: ﴿على علم﴾ يجوز أن يكون حالا من الفاعل؛ والمعنى: أضله على علم منه به، أي أضله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه. ويجوز أن يكون حالا من المفعول؛ فيكون المعنى: أضله في حال علم الكافر بأنه ضال. ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أي طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى[٢]. ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي غطاء حتى لا يبصر الرشد. وقرأ حمزة والكسائي ﴿غَشْوة﴾ بفتح الغين من غير ألف، وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٣]. وقال الشاعر:

أمـا والـذي أنـا عبـدٌ لـه ... يَميناً ومـالَـك أبـدِي اليمينـا

لئـن كنـت ألبستنـي غَشْـوة ... لقـد كنـت أصفيتـك الـوُدّ حينـا

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي من بعد أن أضله. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء.

وهذه الآية ترد على القدرية والإماميّة ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد؛ إذ هي مصرحة بمنعهم من الهداية. ثم قيل: ﴿ وختم على سمعه وقلبه﴾ إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم. وقيل: إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم؛ كما تقدّم في أوّل ﴿ البقرة ﴾[٤]. وحكى ابن جريج أنها نزلت

(١) آية ٤٠ سورة النازعات. (٢) في بعض نسخ الأصل: «الهوى» بالواو.
(٣) راجع ١/١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٤) راجع ١/١٨٦.

في الحارث بن قيس من الغياطلة[١]. وحكى النقاش أنها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة؛ فتحدّثا في شأن النبيّ ﷺ. فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق! فقال له مَهْ! وما دلّك على ذلك!؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسمّيه في صباه الصادق الأمين؛ فلما تمّ عقله وكَمُل رشده، نسمّيه الكذاب الخائن!! والله إني لأعلم أنه لصادق! قال: فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟ قال: تتحدّث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعُزّى إن اتبعته أبداً. فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾.

[٢٤] ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث وإبطال للجزاء. ومعنى ﴿نموت ونحيا﴾ أي نموت نحن وتحيا أولادنا؛ قاله الكلبي. وقرىء ﴿ونحيا﴾ بضم النون. وقيل: يموت بعضنا ويحيا بعضنا. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي نحيا ونموت؛ وهي قراءة ابن مسعود. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ﴾ قال مجاهد: يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر؛ والمعنى واحد. وقرىء ﴿إلا دهر يمرّ﴾. وقال ابن عيينة كان أهل الجاهلية يقولون: الدهر هو الذي يهلكنا وهو الذي يحيينا ويميتنا؛ فنزلت هذه الآية. وقال قُطْرب: وما يهلكنا إلا الموت؛ وأنشد قول أبي ذُؤيب:

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تتوجّعُ ... والدّهْرُ ليس بمعتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) في كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوروبا): «بنو قيس بن عدي كانوا من رجال قريش يلقبون الغياطل، وكان قيس سيد قريش في دهره غير مدافع». قال: «والغياطل: جمع غيطلة، وهو الشجر الملتف، واختلاط الظلام».

وقال عكرمة أي وما يهلكنا إلا الله. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون ما يُهْلِكنا إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبون الدهر قال الله تعالى: ﴿يؤذيني ابن آدم يسب الدّهْرَ وأنا الدهْرُ بيدي الأمر أقلّب الليل والنهار﴾».

قلت: قوله « قال الله » إلى آخره نَصُّ البخاري ولفظه. وخرجه مسلم أيضاً وأبو داود. وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لا يقولَنّ أحدكم يا خَيْبَةَ الدهر فإن الله هو الدهر » . وقد استدل بهذا الحديث من قال: إن الدهر من أسماء الله. وقال: من لم يجعله من العلماء اسماً إنما خرج رداً على العرب في جاهليتها ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم في هذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر ؛ أي إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فنُهُوْا عن ذلك. ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم... » الحديث. ولقد أحسن من قال، وهو أبو عليّ الثقفيّ:

يا عاتبَ الدهرُ إذا نابَهُ ... لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ
الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ ... وينتهي الدهرُ إلى أمره
كم كافرٍ أموالُه جَمّةٌ ... تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزداد إيماناً على فَقْرِه

وروي أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال: إياك يا بنيّ وذِكْرَ الدهر! وأنشد:

فما الدهر بالجاني لشيء لَحيْنِه ... ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدّهْرَا
ولكن متى ما يبعث الله باعثاً ... على معشر يَجعلْ مياسيرهم عُسْرَا

وقال أبو عبيد: ناظرت بعض الملحدة فقال: ألا تراه يقول «فإن الله هو الدهر»!؟ فقلت: وهل كان أحد يسب الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إنّ مَحَلاًّ وإنّ مُرْتَحَلاً وإنّ في السَّفْر إذ مَضَوْا مَهَلاَ
استأثر الله بالوفاء وبالعدل ووَلّى الملامةَ الرّجُلاَ

قال أبو عبيد: ومن شأن العرب أن يذمّوا الدهر عند المصائب والنوائب، حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه. قال عمرو بن قمِيئة:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرْمَى وليس برام
فلو أنها نَبْل إذاً لاتّقيتها ولكنني أرْمَى بغير سهام
على الراحتين مَرّة وعلى العصا أنُوءُ ثلاثاً بعدهن قيامي

ومثله كثير في الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا ربّ سواه. ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عَلْمٍ﴾ أي علم. و ﴿من﴾ زائدة؛ أي قالوا ما قالوا شاكين. ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا يتكلمون بالظن. وكان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً من المسلمين؛ فيتأوّلون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار؛ لأن هؤلاء يُلبسون على الحق، ويُغتر بتلبيسهم الظاهر. والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم. وقيل: نموت وتحيا آثارنا؛ فهذه حياة الذكر. وقيل أشاروا إلى التناسخ؛ أي يموت الرجل فتجعل روحه في موات فتحيا به.

[٢٥] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في جواز البعث لم يكن ثَمَّ دَفعٌ ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ خبر كان، والاسم ﴿إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا﴾ الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فرد الله عليهم بقوله ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني بعد كونكم نُطَفاً أمواتاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم. الزمخشري: «فإن قلت لِمَ سمّى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلَوْا به كما يُدْلِي المحتج بحجته، وساقوه مساقها فسُمّيت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله:

تَحِيَّـــةُ بينهـــم ضَـــرْبٌ وَجيـــعٌ[1]

كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد نفي أن تكون لهم حجة أَلْبَتَّةَ. فإن قلت: كيف وقع قوله ﴿ قل الله يحييكم ﴾ جواب ﴿ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ ؟ قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكّت ألزموا ما هم مقرّون به من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغَوْا إلى داعي الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه».

[٢٧] ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿يوم﴾ الأوّل منصوب بـ ﴿يَخْسَر﴾ و ﴿يومئذ﴾ تكرير للتأكيد

---

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب. وصدره:

وخيـــل قـــد دلفـــت لهـــا بخيـــل

يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا بدلاً من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع. ودلفت: زحفت. والدليف: مقاربة الخطو في المشي.

أو بدل . وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل في ﴿يومئذ﴾ ﴿ يَخْسَر ﴾ ، ومفعول ﴿ يَخْسَر ﴾ محذوف ؛ والمعنى يَخسَرُون منازلهم في الجنة.

[٢٨] ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي من هَوْل ذلك اليوم. والأُمّة هنا: أهل كل ملة. وفي الجاثية تأويلات خمس: **الأوّل** - قال مجاهد: مستوفزة. وقال سفيان: المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله. الضحاك: ذلك عند الحساب. **الثاني** - مجتمعة؛ قاله ابن عباس. الفراء: المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين. **الثالث** - متميزة؛ قاله عكرمة. **الرابع** - خاضعة بلغة قريش؛ قاله مُؤرِّج. **الخامس** - باركة على الركب؛ قاله الحسن. والجَثْوُ: الجلوس على الركب. جثا على ركبتيه يجثو ويجثِي جُثُوًّا وجُثِيًّا؛ على فعول فيهما، وقد مضى في ﴿مريم﴾[1]: وأصل الجثوة[2]: الجماعة من كل شيء. قال طَرَفة يصف قبرين:

ترى جُثْوَتَيْن من تراب عليهما صفائحُ صُمٌّ من صفيح مُنَضَّدِ[3]

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إنه عام للمؤمن والكافر انتظاراً للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبيّ ﷺ قال : « كأني أراكم بالكَوْم[4] جاثين دون جهنم » ذكره الماوردي . وقال سلمان : إن في يوم القيامة لساعةً هي عشر سنين يَخِرّ الناس فيها جُثَاةً على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي « لا أسألك اليوم إلا نفسي ». ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ قال يحيى بن سلام : إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر؛

(١) راجع ١١/ ١٣٢.
(٢) مثلثة الجيم.
(٣) الصم: الصلب. والمنضد: الذي جعل بعضه على بعض.
(٤) الكوم: المواضع المشرفة.

قاله مقاتل. وهو معنى قول مجاهد. وقيل: ﴿كتابها﴾ ما كتبت الملائكة عليها. وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه. وقيل: الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ. وقرأ يعقوب الحضرمي ﴿كُلَّ أمةٍ﴾ بالنصب على البدل من ﴿كل﴾ الأولى لما في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى، إذ ليس في جُثُوّها شيء من حال شرح الجثو كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها. وقيل: انتصب بإعمال ﴿ترى﴾ مضمراً. والرفع على الابتداء. ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر.

[٢٩] ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ قيل من قول الله لهم. وقيل من قول الملائكة. ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي يشهد. وهو استعارة؛ يقال: نطق الكتاب بكذا أي بيّن. وقيل: إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا؛ فكأنه ينطق عليهم؛ دليله قوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1]. وفي المؤمنين: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2] وقد تقدّم[3]. و ﴿يَنْطِقُ﴾ في موضع الحال من الكتاب، أو من ذا، أو خبر ثان لذا، أو يكون ﴿كتابنا﴾ بدلاً من ﴿هذا﴾ و ﴿ينطق﴾ الخبر. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نأمر بنسخ ما كنتم تعملون. قال عليّ رضي الله عنه: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم. وقال ابن عباس: إن الله وكّل ملائكة مطهّرين فينسَخون من أم الكتاب في رمضان كل ما يكون من أعمال بني آدم فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقاً لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان. قال ابن عباس : وهل يكون النسخ إلا مـن كتاب . الحسن: نستنسخ ما كتبته الحفظة

---

(١) آية ٤٩ سورة الكهف.
(٢) آية ٦٢ سورة المؤمنون.
(٣) راجع ١٠/٤١٨ و ١٢/١٣٤.

على بني آدم؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال. وقيل: تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نُسخ منه الحسنات والسيئات؛ ولا تحوّل المباحات إلى النسخة الثانية. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

[٣٠] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي الجنة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي فيقال لهم ذلك. وهو استفهام توبيخ. ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبولها. ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ أي مشركين تكسبون المعاصي. يقال: فلان جريمة أهله إذا كان كاسِبَهم؛ فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي. وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾[1] فالمجرم ضد المسلم فهو المذنب بالكفر إذاً.

[٣٢] ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي البعث كائن. ﴿وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ وقرأ حمزة ﴿والساعةَ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿وَعْدَ﴾. الباقون بالرفع على الابتداء، أو العطف

(١) آية ٣٥ سورة القلم.

على موضع ﴿إن وعد الله﴾، ولا يحسن على الضمير الذي في المصدر؛ لأنه غير مؤكد، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد في الشعر. ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ هل هي حق أم باطل. ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ تقديره عند المبرد: إن نحن إلا نظن ظنًّا. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أن الساعة آتية.

[٣٣] ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي نزل بهم وأحاط. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من عذاب الله.

[٣٤] ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾ أي نترككم في النار كما تركتم لقاء يومكم هذا؛ أي تركتم العمل له. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي مسكنكم ومستقرّكم. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ من ينصركم.

[٣٥] ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿هُزُواً﴾ لعباً، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتكم بأباطيلها وزخارفها؛ فظننتم أن ليس ثَمّ غيرها، وأن لا بعث. ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي من النار. ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يسترضون. وقد تقدّم[١]. وقرأ حمزة والكسائي ﴿فاليوم لا يَخْرُجُون﴾ بفتح الياء وضم الراء؛ لقوله تعالى:

---

(١) راجع ١٠/ ١٦٢ و ١٤/ ٤٩ و ١٥/ ٣٥٣.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[1] الباقون بضم الياء وفتح الراء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾. ونحوه.

[٣٦] ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن ﴿رَبُّ السمواتِ ورَبُّ الأرض رَبُّ العالمين﴾ بالرفع فيها كلها على معنى هو رَبّ. ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والله أعلم.